الفصل السادس

احيـاء الآريوسية وصحوة الملية

كان قلب قسطنطين يهوى الشرق ، ولكن بصره كان معلقا بالغرب · وبين قلب الامبراطور وبصره تأرجحت سياسته ، وراح فؤاده والحـواس ينتقلن بين هذا الجانب أو ذاك ، وما كان فى مقدور قسطنطين أن ينظر الى قلبه والنار تأكله لفتنة فى الشرق حادثة ، وان كان باستطاعته أن يغمض عينيه على الغرب لهدوء متقطع فيه باد · وكم حزن الامبراطور ودمى قلبه وهو يرى شرقه ومبتغاه تفتك به حمى جدال اتشح مرضاه بمسوح الدين ، وكم طاب خاطرا لغرب آثر أن يقى نفسه عدوى وباء فى الشرق ساد !!

فقسطنطين وان كان لم يخرج الغرب البتة من تفكيره ، الا انه جعـل الشرق كل فكره ، وكان قد قضى من عمره فى الشـــرق سنين عددا رهين قصر نيقوميديا ، ولمس بنفسه أساليب الحكم فى المنطقة وطرائق الادارة ، وكانت نظم الحكم هنا تنحو الى الطابع الاستبدادى ســـواء فى الملكيات الهلنستية القديمـــة أو الامبراطورية الفارسية ، وشاهد قسطنطين بعينى رأسه دقلديانوس وهو يمارس نفس الأنظمة ، فلما جـــاء الى الشـرق كان عصمما على أن يكمل خطا سلفه · فترك روما بتقاليدها الجمهورية والغرب بكيانه الاقتصادى المتصدع ، وراح يضع على أطلال بيزنطة المدينة الاغريقية القديمة أسس عاصمة جـــديدة ، فأظهر للجميع بذلك عزمه على أن يكون الشرق مستقره ومثواه ، وأمل أن يجد فى هذه البقاع سكينة كان ينشدها والهدوء ،وتعلقت آماله برعاياه المسيحيين علّه يجد فيهم خير عـون لنظم حكومته ، ويقول ول ديورنت ،لقد كان قسطنطين يأمل أن يكون حاكما مطلق السلطان ، وهذا النوع من الحكم يفيد لا محالة من تأييد الدين ، وقد بدا له أن النظام الكهنوتى وسلطان الكنيسة الدنيوى يقيمان نظاما روحيـا يناسب

نظام حكومته ، ولعل هـذا النظام العجيب بما فيـــه من أساقفة وقساوسة يصبح آداة لتهدئة البلاد وتوحيدها وحكمها(١) · ولعل فى مسلك قسطنطين تجاه أساقفة مجمع نيقيـة وما أغرقهم فيـــه من المنح والعطايا خير شاهد على ذلك ·

ولكن قسطنطين فجع وهو بعد فى الغرب بالصدع الدوناتى ، ثم فجع أخرى أشد وأقسى عندما وطئت قدمه الشرق ، فسارع الى دعـــوة أولى الأمر فى العقيدة المسيحية ، ولما جمعت نيقية شملهم وقر على قانون الايمان رأيهم ، قرت كذلك عين الامبراطور ، ونفى مخالفيه وعلى رأســـهم زعيمهم آريوس ، ثم رجلى الفريق الشهيرين يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى · وهىء لقسطنطين أنه بذلك قد نجـــا والامبراطورية من خطر كبير كان يهدد وحدة الدولة وأمنهـــا ، ولكن الأحداث سرعان ما أطاحت بكل حلم داعب خيال قسطنطين ·

ما كاد المجمع المسكونى الأول ينهى أعماله ويعـــود أساقفته كل الى بيعته حتى عادت الفتنة ترفع رأسها من جديد ، ولقـد علمنـــا من الفصل الســابق أن يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنس أسقف نيقية ، قـــد عادا سيرتهما الأولى وراحا يبشران بأن الابن ليس من نفس جوهر الأب ، مما اضطر الامبراطور الى أن يصـــدر قرارا بعزلهما ونفيهما ، وتعيين بديلين عنهما ، وبذلك ضمن قسطنطين ــ الى حين ــ هدوء هذه المنطقة ·

أما فى مصر فيخبرنا يوساب القيسارى أن الحال فيها كانت غاية السوء عقب المجمع نتيجـة انقســـام داخلى(٢) ، الا أنه لم يوضح سبب ذلك ولا طبيعته مما دفع سقراط الى اتهامه بالمكر والمراوغة ، وأنه كان يتجنب ذكر أسباب الانقسامات هـــذه وذلك لميله الى الفريق الآريوسى(٣) · ولـــكن سوزومين يفسر هذه الأحداث بقوله ان اسكندر بعـد عودته الى الاسكندرية عقب ارتضاض مجمع نيقية ، قام مليتيوس بتسليمه الكنائس التى كان قد

---

(١) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ٣ ص٣٨٨ ·

(٢) EVSEB. vita Const. III. 28.

(٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 23.

أخذها قبلا(٤) ، وعاد ثانية الى مقره فى أسيوط تنفيذا لقـــرارات المجمع المســـكونى ، الا أنه لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أحس مليتيوس دنو أجـه ، فعين شخصا يدعى يوحنا Iohannes خلفـــا له كان يعـــد أقرب أصدقائه ، وذلك خلافا لما أقره المجمع النيقى(٥) · وهكذا برزت الى الوجود قضية الميتية ثانية وأضحت مثارا للخلاف والشقاق · ويمضى سوزومين قائلا ، وعندما علم الآريوسيون بما ابتـدعه الميتيون بدأوا هم الاخـــرون يناوئون الكنيسة السلطان ، فتبعهم من جـــديد أناس كثيرون ، بينما مال الى الميتيين جمـــع رأوا من حقهم ترؤس كنائســهم · وعلى الرغم من أن الفريقين لم يكونا على وئام الا أنه جمعهما شىء واحد هو معارضة الكنيسة الجامعـــة وعدواتهما للاكليروس السكندرى ، وبلغ من تقـاربهما أن راح البعض يطلق على الميتيين صفة الآريوسية(٦) · وان كان انشقاقهم ، كما يعلق مؤرخنا ، يعود الى مسألة تنظيمية بحتة بصدد رئاســـة الكنائس فى الوقت الذى كانت فيه الآريوسية مسألة عقائدية ، وعلى الرغم من أن كليهما ينكر تعاليم الاخر الا أنهما اصطنعا المداهنة سبيلا يعامل به أحدهما الاخر فى سبيل تحقيق مصلحتهما فى مواجهة خصمهما المشترك(٧) · ومنذ ذلك الزمن تقبل الميتيون ، بعد مناقشات حادة ، العقيدة الآريوسية وحملوا نفس أفكار آريوس عن الاله · وقـد أحيا هذا من جـديد الجـــدل حول آريوس وعقيدته ، وأدى بالتالى الى انشقاق طائفة من العلمانيين ورجال الاكليروس عن غيرهم من الكنيسة ، وحمى وطيس الجـدل ثانية حول آريوس وعقيدته فى كثير من مناطق الامبراطورية(٨) ·

تلك كانت حال المسيحيين عقب انتهـاء مجمع نيقية حيث يبـــدو من أقوال سوزومين أن قرار المجمع فى هـذا السبيل لم يؤد الى اماتة العقيدة الاريوسية أو رأب الصدع الميتى ، وأدرك قسطنطين بثاقب نظره أن محاولة لحسم الخلاف واعادة الوحدة للامبراطورية لن تؤتى ثمارها اذا بقى زعماء

---

(٤) SOZOM. hist. eccl. II, 21; ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(٥) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

(٦) Id.

(٧) Id.

(٨) SOZOM. hist. eccl. II, 21.

الفريق الآريوسى خارج حظيرة الايمان النيقى · واذا ظـل آريوس بالذات يتحدى قرار أساقفة المجمع المسكونى ، ومن ثم عزم على استمالته الى آرائه حتى ينجو بذلك من شبح الانقسام المخيف · وتلك كانت سياسة قسطنطين دائما ، يمسك بقبضته الذكية عصا التسيار من وسطها ، يقرب اليه فريقـا من المتصارعين ، حتى اذا أدرك أن زعماء هذا الفريق قد بدأوا يحسون بثقل مركزهم ورجحان كفتهم ، قلب لهم ظهر المجن ، وعـاد الى استمالة الفريق الاخر الذى كال لزعمائه ورجاله الويلات والاضطهاد ، بعد أن تكون نفوسهم قد سئمت هذا العنت · لقد كان كل همه أن يظـل حاكما قويا فـردا فى امبراطورية موحدة ، ومن ثم لم يكن ليسمح لفريق بأن تقـوى شوكته أو يستشعر السلطان ·

وأمامنا الان روايتان لسقراط وسوزومين حول عودة آريوس ، تشير أولاهما الى أن الامبراطور قـد عفا عن أسقفى نيقوميديا ونيقية المنفيين وأعادهما الى منصبيهما ثانية ، وتكفل يوساب بعـد ذلك بمحاولة اعادة آريوس الى الكنيسة ثانيـة ، وتبرئة ساحته · ويقـول سقراط ان الاسقف النيقوميـدى استطاع أن يتحالف مع أحـد رجـال الدين الضالعين فى الاريوسية كان فى معية قسطنديا أخت قسطنطين وأرملة ليـكين ، وأوحى اليه يوساب أن ينتهز فرصة احدى عظاته الودية مع قسطنديا ليخبرها أن قرار المجمع النيقى بادانة آريوس كان بعيدا عن روح العدالة ،وأن التقرير الشائع الذى ينسب الى آريوس غير حقيقى · وقد أعطت الأميـرة ثقتهـا الكاملة لهـذا الرجل ، غير أنهـا لم تطلع الامبراطور على شىء من ذلك · فلما أحست دنو أجلها وجاء اليها أخوها يعودها راحت تمتدح للامبراطور محاسن ذلك الرجل مثنية على ورعه وتقواه ، ولكنهـا لم تفض اليه بشىء عن آريوس وظلامته · فلما توفاها الموت غدا واعظها أقرب ثقاة الامبراطور ، وازداد على الأيام قربا منه ، ووداً له ، فلما أمكن منـه قص على مسامعه ما سبق أن ردده على آذان أخته ، مؤكـدا له أن آريوس ليس لديه أية آراء أخرى غير تلك التى أقرها المجمع ، واذا ما سمح له بالمثول أمام الحضـرة الامبراطورية فلسوف يقدم موافقته الكاملة على ما أقره الأساقفة فى نيقية · ولما تبدى ذلك عجبا لدى الامبراطور انبسطت أساريره وصـرح بانه اذا وقع آريوس مع المؤتمر وتمسك بآرائه ، فليسمحن له بالوقوف أمامه وليعيدنه

الى الاسكندرية مبجلا · وقام الامبراطور من فوره ليرسل الى آريوس بهذا المعنى(٩) ·

ولكن هذه الرواية لا يمكن قبولها على علاتهـــا ، فمجمع نيقية أدان الآريوسية وأشياعها ،وتتبع الامبراطور أولئك الأشياع بالنفى والاضطهاد حتى يضمن استقرار الأمـور وهدوءها تمشيا مع قرارات رجال الكنيسة ، وكان من الطبيعى أن يبدأ قسطنطين بتضهير بلاطه وقصره من هذا الفريق ، فكيف نفسر اذن بقاء رجل من الضالعين فى العقيدة الاريوسية فى القصر الامبراطورى هاديا لأخت الامبراطور ؟ ومـا كان هـــذا براغب فى اثارة الشكوك حـول نفسه ، ولا أن يجلب عليها نفور رجال الكنيسة وهـو طالما سعى الى جمع شتاتهم لبلوغ مطمحه ، وكان عليه اذا ما نفذ قرارات المجمع الذى عده فى رسائله يصدر بوحى من الروح القدس(١٠) أن يبـــدأ بنفسه أولا وعشيرته الأقربين ، هـــذه ناحيـــة · والأخـــرى أنه لو كان صادقا ما يرويه سقراط لكانت قسطنديا ، بفعل ذلك الرجـــل ، أشد حبا لآريوس وأكثـــر حماسـا لقضيتـــه ، ومن ثم يضحى تأثيـــرها على الامبراطور أوقع · الا أنهـا لم تخبر أخـــاها بشىء عن آريوس ولم تطلب منـــه عنه عفـــوا ولم تســـأله صفحا · وفوق هـــذا وذاك ما يكتـــه الامبراطور ليوساب جزاء تحديه للاساقفة وتبجحه فى حضرة الامبراطور ، وفى رسالة قسطنطين الى أهالى نيقوميديا نقف على مـــدى الاتهامات التى يقذف بها الامبراطور أسقف المدينـــة · ويقـــول زنوس Zenos ان سقراط ذكر تلك الحـــادثة فى غير موضعها ، والـذى نعلمه أن قرار العفـــو عن يوساب وثيوجنس قد صدر فى سنة ٣٢٨ أى بعـد أن أمضيا فى المنفى ثلاث سنين سـويا(١١) ·

أما رواية سوزومين فنقف منهـــا على أن الامبراطور قد أعاد آريوس

---

(٩) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(١٠) EVSEB. vita. Const. III, 17.
وراجع أيضا SOZOM. hist. eccl. I, 21.

(١١) Zenos, introduction to (SOCRAT hist eccl. Nicene) II, p. 19, n. 1.

من منفـاه أولا ، ولكن قرار منعه من دخـول الاسكندرية ظل ساريا ، وسرعان ما عاد كان من يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى الى كنيستهما بعد أن قدما الى الأساقفة وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما انما يتبعان الايمان القويم حسبما قرره مجمع نيقية(١٢) ٠

ويبدو أن الأمر اختلط على سقراط فعد جهاد يوساب بعد عودته من المنفى لقبول آريوس فى كنيسة الاسكندرية ثانية ، وكان الامبراطور قـد عفا عنه ولم يعد الى الاسكندرية بعد ، سعيا للعفو عن آريوس الذى كان الامبراطور قد أصدر فعلا قرار عفوه عنه ٠

والذى نراه أن الامبراطور وقد رأى المجمع لم ينجح فى القضـاء على الآريوسية وأن خطرها لازال كامنا فى أفئـدة الكثيرين ، وهاهم الان يعودون من جديد لجمع صفوفهم فى مصر متضامنين مع الفريق المليتى ، فى الوقت الذى أحست فيه الكنيسة الجامعة بقوتها ، بعد هـذا الاجماع الكبير على صيغة قانون الايمان النيقى ، وبعد أن رأت نفى زعماء خصومها على يد الامبراطور ، ولهـذا أيقن قسطنطين تمشيا مع سياسته أن السبيل الوحيد لايجاد التوازن أن يعيد زعيم الآريوسية الى دائرة الكنيسة ، وحتى يضمن أيضا بذلك صمت مشايعيه والتخلص من خطر هـذا الانقسام فى الرأى ٠ على هذا النحو بدأ قسطنطين يكاتب آريوس يدعـوه للعودة الى حظيرة الايمان القويم ٠ وقد حفظ سقراط رسالة بعث بها الامبراطور الى آريوس جاء فيها :

« لزمن مضى ، بلغ نيافتكم أن فى مقدوركم الوفود الى مقامنا بغية الحصول منا على لقاء ، وكم كانت دهشتنا بالغة لتوانيكم فى الاقدام ٠ وعليه اذن ٠٠ بادروا بالارتحال مسرعين الى بلاطنا ، وعندما تحسون رحمتنا بكم وتقديرنا اياكم تضمنون العـودة الى دياركم ٠ دعـائى الى اللـه أن يحفظـكم عزيزى »(١٣) ٠

---

(١٢) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

(١٣) SOCDAT. hist. eccl. I, 25.

ويعلق سقراط على هذه الرسالة بقوله : تلكم هى رسالة الامبراطور الى آريوس وما أنا بمستطيع القول شيئا سوى أن أبدى اعجابى لتلك الغيرة والحماسة التى أظهرها الامبراطور من أجل الديانة(١٤) !!

ويتضح من رسالة الامبراطور عدة أمور على جانب كبير من الأهمية ، فهذه الرسالة لم تكن الوحيدة بين الرجلين ، ولكنها كانت الأخيرة كما نعلم من سقراط(١٥) · فحديث الامبراطور يوحى أنه بعث الى آريوس قبلا يدعوه للحضور اليه ، وآريوس يتجاهل · ويبدى الامبراطور دهشته الكبيرة لذلك الاحجام من جانب آريوس ، والرسالة تحمل فى طياتها نغمة عتاب للرجل على توانيه فى المثول أمام الامبراطور رغم أن ذلك عرض عليه اكثر من مرة ، كما يتضح أيضا مدى لهفة قسطنطين على استقبال الرجل وكأنه يغريه بفيض رحمته وسماحته بالاذن له بالعودة الى الاسكندرية ، ولعلنا ندرك من قول الامبراطور هذا مدى حرصه على الحفاظ على وحدة الامبراطورية واقرارا السلام بها ، وذلك شىء يفسره سقراط بغيرة الامبراطور وحماسته الدينية !!

أمام الحاح الامبراطور جاء آريوس الى القسطنطينية يصحبه يوزيوس الشماس الذى كان اسكندر قد حرمه باعتباره نصير آريوس عند بداية الجدال بين الرجلين(١٦) ، وقد استقبلهما الامبراطور وسألهما عما اذا كانا قد وافقا على قانون الايمان النيقى ، فأعطياه موافقتهما ، فطلب اليهما أن يقدما اليه مكتوبا يؤكد قولهما(١٧) ، فاستجاب آريوس وصحبه لأوامر الامبراطور وقدما اليه الصيغة التالية :

« آريوس ويوزيوس ·· الى سيدنا التقى الورع قسطنطين الامبراطور ·· أيها السيد الحاكم ، وفقا لأمر جنابكم البار ها نحن نعلن ايماننا ، ونعترف أمام الله كتابة أنا وأشياعنا نؤمن هكذا ·· نؤمن بالله واحد ·· الآب

---

(١٤) Id.

(١٥) Id.

(١٦) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(١٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

القدير ٠٠ وبالرب يسوع المسيح ابنه المولود منه قبل الدهور ٠ الله الكلمة الذى نزل وتجسد ، وتألم ،و قام ثانية وصعد الى السماء ، وسـوف يأتى ثانية ليدين الأحيـاء والأموات ٠ (نؤمن) أيضا بالروح القـدس ، بقيامة الجسد ، بالحياة الاخرة ، بملكوت السماوات ٠ بكنيسة لله واحدة تمتد فوق كل أرضين ٠

هذا الايمان عن الأناجيل المقدسـة تلقيناه ، حيث يقـول السيد لتلاميذه : اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الاب والابن والروح القـدس (متى ٢٨/١٩) ٠

وانا ان لم نؤمن ونتقبل بحق الآب والابن والروح القدس كما تبشر الكنيسة الكاثوليكية والكتب المقدسة (التى نؤمن بكل ما جاء فيهـا) فالله قاضينا كلينا الآن ويوم الدينونة ٠ أيها الامبراطور القانت ٠ نضـرع الى تقواكم ، نحن يا من كرسنا للاكليروس ، يا من نتمسك بعقيدة وفكر الكنيسه والكتب المقدسة ٠٠ هلا سمح ورعكم وتقواكم بعودتنا ثانية الى أمنـا الكنيسة ٠ ولنلق جانبا سطحى المسائل والجدال ٠ عندما يغدو كلانا والكنيسة وقـد احتوانا سلام ٠٠ لعهـدكم الأمين ، ولأجل الاسرة كلهـا نقدم صلواتنـا والابتهال »(١٨) ٠

وأول ما يلفت النظر أن صيغة الايمان هـذه جاءت خلوا من عبـارة « من نفس الجوهر » (الهوموسية) وهى التى دار حولها الجـدل طيلة طرح هـذه القضية فى المجمع ، وهى العبـارة التى أخبر يوساب القيسارى ان الامبراطور نفسه هو الذى اقترح اضافتها الى العقيدة ٠ يضاف الى هـذا خلوها أيضا من عبارة « مولود غير مخلوق » وهى التى ادخلت أيضا برأى المجمع على مرسوم الايمان القيسارى ٠ ويقول جونز ان صيغة الايمان التى قدمها آريوس ويوزيوس كانت فى جملتها مختصرة ماكرة(١٩) ٠ وعلى الرغم

---

(١٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 26.

(١٩) Jones, Constantine, p. 175.

من كل هذا فان الامبراطور لم يلق بالا الى هذه الموضوعات التى كانت سببا فى الانقسام ، لعدم ادراكه لعمق هذه الخلافات اللاهوتية ، متلهفـــا على اعادة الوحدة الى الكنيسة والدولة ، فعد هذه الصيغة اعترافا من الزعيم الآريوسى بمرسوم الايمان النيقى ، وقبل منه وزميله ذلك ، وقد رآه حسنا ، واستجاب لنداء الرجلين الذى جاء فى نهاية ملتمسهما ، وأصـــدر أوامره بالعفو عن آريوس وصاحبه · ولم يلبث الامبراطور أيضا أن قرر استدعاء كل من يوساب وثيوجنس من المنفى ، وأمر بعودتهما ثانية كل الى كنسيته بعـــد أن قدما وثيقة توضح عقيدتهما وأنهما يتبعان الايمان القويم(٢٠) · وكان هـــذا يعنى بداهة عزل الأسقفين البـــديلين أمفيون وكرستوس اللذين اختيرا من قبل ·

ولعلنا ندرك خلال كل هذه الحوادث دور الامبراطور فى تحريكهـــا ، فلقد تكفل بمراسلة آريوس ودعوته الى بلاطه وطلبه اليـــه تقـــديم صيغة للايمان موافقة الكنيسة ، وقبوله بنفسه لهـــذه الصيغة دون أن يرجع فى شىء من هذا كله الى أى من رجال الكنيسة ، ولم يطلب اليها رأيا أو يستمد نصحا ·وذلك شىء لم يكن من غير الطبيعى فى شىء ما دامت الكنيسة قد هللت للامبراطور وهو يترأس مجمع أساقفتها ويتدخل بنفسه فى أمور العقيدة بالحذف والاضافة ، فلا غرو اذن أن يحرم الامبراطور ، ويمنع ، وأن يعفو ويصفح دون أن يرهق فكر الكنيسة بشىء من هـــذا · واستسلمت الكنيسة طوعا وكرها ، فوضع قسطنطين بذلك لخلفائه سنة احتساب الكنيسة دائرة من دوائر الحكومة ، للأباطرة حق تعيين كبار موظفيها وعزلهم ·

غير أن شيئا لم يكن فى الحسبان جاء قسطنطين على غير توقع ، وبدد حلم سلامه وأمل الوحدة لديه ، ذلك أن كنيسة الاسكندرية رفضت الانصياع لأوامر الامبراطور ، ووقفت وحدها ، على الأقل ، من بين كنائس الامبراطورية تدافع عن الايمان النيقى الأرثوذكسى متحدية الامبراطور ، ضاربة بعرض الحائط قراراته ورغبات بطانته الكنسية الجديدة · وذلك فى عهد شخصية تعد من أقوى الشخصيات المصـــرية هو أثناسيوس ، أسقف الاسكندرية ،

---

(٢٠) SOZOM. hist. eccl. II, 16.

شماس المجمع النيقى الشهير ، الذى تولى الأسقفية خلفا لسلفه اسكندر عام ٣٢٨ ، قبدأ بهذا الرجل فصل جديد من فصول الصراع بين الكنيسة والدولة لم يسدل عليه الستار الا فى القـــرن السابع والمسلمون يؤذنون بالتسامح على أبواب مصر ٠

خيـــل للامبراطور أن سنوات عمره الباقية ستنقضى فى هدوء كان دائما ينشده ، فها هو آريوس نفسه قـد عاد الى الاعتراف ٠ على الأقل من وجهة نظر الامبراطور ، بالايمان النيقى ٠ وها هم صحبه قد سلكوا أيضا نفس السبيل ، ولم يبق اذن الا أن يقبـــل الأسقف السكنـدرى أثناسيوس آريوس فى الكنيسة ثانية ٠ ولـكن الامبراطور كان واهما فى تصـــوره ، فالأساقفة الآريوسيون وان كانوا قد أبدوا موافقتهم وبصورة غامضة على ما قرره أساقفة نيقية الا أن ذلك لم يكن صادرا عن رغبة أكيدة فى اعتناق هذا الايمان فعلا ٠ وذلك شىء برهنت عليه أحداث ما يقـــرب من قرن من الزمان ٠ ولكنهم كانوا فى حقيقة الأمر يؤمنون تمام الايمان أن آريوس على اليقين وأن خصومه عن الحق بعيدون ٠ ومن ثم راحـــوا يسعون جاهدين لكسب الامبراطور الى جانبهم لتأييـــد قضيتهم ٠ وساعـدتهم على ذلـك الأحـداث ٠

يخبـــرنا سقراط(٢١) وسوزومين(٢٢) أن يوســـاب النيقوميـدى وثيوجنس النيقى قد حظيا لدى الامبراطور وعقب عودتهما من المنفى بمكانة كبيرة وحرية فى القول وتأثير كبير على الامبراطور ، وقـد يبدو ذلك عجيبا اذا ما عدنا الى الرسالة التى بعث بهـــا الامبراطور الى أهالى نيقوميديا يوضح لهم فيها خبائث يوساب ورفيقه ، ولكن سرعان ما يزول العجب اذا أدركنا أن الامبراطور كان يبغى كسب ولاء هـذين الرجلين باعتبارهما أبرز شخصيات الفـــريق الآريوسى عله بذلك يضمن ولاء أنصارهما ، ومن ثم قربهما الامبراطور اليه متغاضيا عن كل ما جرى على قلمه عنهما آنفـا ٠ هذا من ناحية ، ومن الأخرى فقد قدم الرجلان لقسطنطين وثيقة ايمان عدها

---

(٢١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٢٢) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

قويمة وارتضى بها أرثوذكسيتهما · أما الثالثة فقد كان للاتجـــاه الذى اتخذه اثناسيوس السكندرى أكبر الأثر فى ايغار صـــدر الامبراطور عليه وتقريبه بالتالى لخصومه الذين وجدوا فى ذلك أعظم الفرص لبلوغ غاياتهم ·

سعى الشيخان لدى الامبراطور لاعادة آريوس ثانيـــة الى كنيســـة الاسكندرية ، وكان قسطنطين على وعده الذى وعـــد به آريوس فى رسالته الأخيرة اليه ، فكتب الى الأسقف السكندرى يطلب اليه قبول آريوس(٢٣) · كما كتب يوساب النيقوميدى أيضا الى اثناسيوس بهذا المعنى ، وان كانت لهجة يوساب تحمـــل ضمنا معانى التهديد(٢٤) · غير أن اثناسيوس أرسل الى الامبراطور ما يفيد عدم قبوله الزعيم الآريوسى فى بيعته(٢٥) ·

ذلك أمر لم يكن يتوقع الامبراطور حدوثه · فقد حسب أن أحـــدا من رجالات الكنيسة قل شأنه أو كبر لا يملك المقـــدرة للاعتراض على أى قرار للامبراطور ، ومن ثم استشاط غضبا لهـــذا الـــذى يسمع ويرى !! وزاد الطين بله انه قد بلغه أيضا أن اثناسيوس رفض قبول الميتيين فى الكنيسة ، واحتج على اختيار يوحنا الميتى خلفا لميتيوس(٢٦) · وكان الميتيون قـــد جاءوا بالشـــكوى للامبراطور من المعـــاملة التى يلقونهـــا على يد أسقف الاسكندرية ، ويصور سوزومين حالة قسطنطين عندئذ أحسن تصوير حيث يقول « أصبح الامبراطور من أمره فى حيرة ·· أى الفريقين يصـــدق ؟! لقـــد كان أمامه كثير من الاتهامات التى ألصقوها ببعضهم ، وهناك أيضا العديد من البيانات والأدلة التى قدمها الطرفان ، فلما عاين الامبراطور ذلك كله استبد به القلق وبلغ به الغضب حدا كبيرا »(٢٧) · فكتب فى محـــاولة لاعادة الوئام ، الى اثناسيوس متوعدا ، وحمل الرسالة اثنان من موظفى القصـــر هما سينكلتيوس Syncletius وجاودنتيوس Gaudentius (٢٨) وجاء فيها :

---

(٢٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٢٤) SOZOM. hist. eccl. II, 18.
(٢٥) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(٢٦) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(٢٧) SOZOM. hist. eccl. II, 22.
(٢٨) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

« انك ولا شك تعى تماما ارادتنا ، لا تحل البتة بين اى فرد ورغبته فى دخول الكنيسة ، ولتدرك جيدا انهاذا ما نما الىعلمنا أنأحدا ممن يرغبون فىالعودة الى الكنيسة قد حيل بينه وبين ما يشتهى لأبعثن على التو من يقوم بعزلك انفاذا لمشيئتى ويرسل بكم الى المنفى »(٢٩) ٠

ويبدو أن الامبراطور لم يكن جادا فى تهديده هذه المرة ، فقد قصد بذلك مجرد قهر اثناسيوس على الامتثال لأوامره ، وذلك شىء دلت عليه الأحداث بعد ذلك وأوضحه تعليق سقراط على هذه الرسالة بقوله لن الامبراطور ما أقدم على ذلك الا مدفوعا بالرغبة فى نشر الخير العام وعدم رؤية الكنيسة ممزقة ٠ فطالما جاهد الامبراطور ليجمع على الوئام صفوفهم »(٣٠) ٠

ومهما يكن من أمر فقد اتضح الآن أن الفريق الآريوسى قد بدأ يفيق الى حد بعد الكلمة التى كالها له مجمع نيقية ، وأخذ الامبراطور بالتالى يدخل هذه الظاهرة فى اعتباره ويحسب بدقة حسابها ، الا أن أحداثا أخرى وقعت خارج الاسكندرية جذبت اهتمام الامبراطور الى حين ، وكان منشؤها كما يقول سقراط ما تبين خلال الرسائل التى تبودلت بين الأساقفة عقب مجمع نيقية ، أن عبارة « من نفس الجوهر » قد سببت المتاعب للكثيرين منهم ، ولذلك فانهم شغلوا انفسهم بفحص دقيق حول فحواها مما أدى بالتالى الى اشعال نيران الجدال بينهم ثانية ، ويضيف سقراط ، يبدو أن المسألة كانت نزاعا فى ظلام لأن أحدا من الحزبين لم يحاول فهم موقف الآخر والأسس التى يعتمد عليها ، فهؤلاء الذين يعارضون هذه العبارة يعتقدون أن انصارها يتحمسون لآراء سابليوس(٣١) وموتانوس ، ومن ثم

---

(٢٩) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(٣٠) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٣١) سابليوس Stbellius أحد مواطنى طلميثة Ptolemais (احدى المدن الخمس الغربية) وقد نادى فى القرن الثالث الميلادى بأن الاقانيم الثلاثة منفصلة ، ولكنها صور مختلفة للأقنوم الأول فى الثالوث ٠ وقد تصدى للرد عليه الأسقف السكندرى ديونيسيوس ٠
انظر ATHANAS. Orat. C. Arian. IV, 9.

اطلقوا عليهم مجدفين أو ملاحدة · هذا على حين يتهم أصحاب هذه العبارة خصومهم بالشرك والقول بتعـــدد الآلهـــة معتبرين اياهم وثنيين يؤمنون بالخزعبلات(٣٢) ،وعلى هذه الشاكلة اتهم يوستاتيوس Eustathius **أسقف** انطاكية يوساب أسقف قيسارية بالمروق عن قانون الايمـــان النيقى ، فأنكر يوساب ذلك ورد التهمة اليه بأنه مدافع عن أفـكار سابليوس ، ونتيجة لذلك أو لسوء الفهم هذا ، على حد تعبير سقراط ، كتب كل منهما كما لو كان يناضل عدوا لدودا(٣٣) ·

الحقيقة أن لدينا عديدا من الروايات عن الاتهامات التى سيقت ضـــد يوستاتيوس ، فيوساب صاحب النزاع معه لا يعطينا أى تفصيلات عن أسباب هذا النزاع ، ولعل ذلك قد يبدو متفقا مع نهجه فى كتابه « حياة قسطنطين » ، ولا يذكر شيئا عن هذه الحوادث سوىأن « تدابير الشيطان وعيون الحاسدين » هى التى أحدثت هذه الاضطرابات فى انطاكيـــة بزعامة يوستاتيوس(٣٤) · أما اثناسيوس فانه يثنى على الأسقف الأنطاكى ويمتدح خصاله وقويم ايمانه مما لم يرض خصومه الآريوسيين فكالوا له التهم عند الامبراطور مدعين بأنه أهان هيلينا(٣٥) · على حين أن ثيودوريت يوسع دائرة الخلافلتشمل يوساب النيقوميدى معتبرا اياه سبب كل هـــذا البلاء ، ويقـول انه أبدى رغبتـه للامبراطور فى الســفر الى أورشليم لحضـــور الاحتفالات المقـامة لتدشين الكنيسة التى أقامها الامبراطور هنـــاك · ولـما كان قسطنطين قـد اطمأن لأقواله فقد سمح له بذلك وزوده بكل ما يحتاج اليـه فى حله وترحاله ، ولما كان ثيوجنس أسقف نيقية صديقه الحميم فقد اصطحبه معـه فى سفره ، فلما وصلا الى الأماكن المقدسة تلاقت وجهتا نظرهما مع من يشاركونهما الرأى فى فكرهما خاصـــة يوساب أسقف قيسارية ، وباتروفيلوس أسقف بيسان ، وآيتيوس أسقف اللد وثيودوتوس أسقف اللاذقية ، وآخرين غيرهم يتعاطفون مع العقيدةالآريوسية ، وقر رأيهم على تدبير « مؤامرة » معينة ·ومن ثم رحلوا

---

(٣٢) SOCRAT. hist eccl. I, 23.
(٣٣) Id.
(٣٤) EVSEB. vita Const. III, 59.
(٣٥) ATHANAS. hist. Arian. 4.

الى انطاكيةوكن ادعاؤهمالذى زعموه لهذه الرحلةهو رد اعتبار يوساب(٣٦)٠ ولكن الغموض يكتنف هذه القصة ، فالاحتفال بتدشين كنيسة أورشليم تم علم ٣٣٥ ، بينما وقعت هذه الأحداث سنة ٣٣٠(٣٧) ٠ وعلى الرغم من تعدد هذه الروايات الا أن الاجماع عندهم على أن مسألة العقيدة والخلاف بين الرجلين بشأنها كان السبب الرئيسى فى حدوث هذه الاضطرابات ٠ ولحسم هذا الخلاف دعا الى عقد مجمع فى انطاكية(٣٨) ترأسه يوساب القيسارى(٣٩) ٠ ويسوق ثيودوريت صورة من الاتهامات التى وجهت ضد يوستاتيوس(٤٠) ، ولكن هذه الاتهامات تبدو غير حقيقية لأنها لم ترد فى كتابات سقراط أو سوزومين أو اثناسيوس ٠ ولكنا نعلم من سقراط أن كيروس Cyrus أسقف بيرويا Beroea (حلب) قد تولى مهمة الادعاء ضد يوستاتيوس ، فاتهمه بأنه يردد نفس الآراء السابيلية(٤١) ، ولما كانت غالبية الحاضرين فى المجمع من مؤيدى يوساب تم عزل يوستاتيوس من منصبه(٤٢) ،واصدر الامبراطور أوامره بنفيهالى ترجانابوليس فى تراقيا(٤٣) وحولما يقوله سقراط عن عزل أسقف انطاكية تتضح الحالة التى كانت تسود الكنيسة عندئذ ، والعداوات المتأصلة بين رجالها ،فبعد أن يسوق حادث العزل يقول ان هذا الاجراء قد اتخذ لأسباب غير مقنعة ، وقد كان هذا أمرا شائع الحدوث ، فقد اعتاد الأساقفة أن يفعلوا ذلك فى كثير من الأحوال ، يتهمون ويعلنون فساد أولئك الذين يعزلونهم دون أن يقدموا تبريرا لهذا العمل(٤٤) ٠

ما كاد المجمع يصدر قراره بعزل يوستاتيوس حتى شبت الثورة فى

---

(٣٦) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٣٧) McGiffert, op. cit. p. 21; Latourette, Christianity, p. 158; F. Jackson, op. cit. p. 316; Palanque, Bardy, Labriolle, op.cit. III, p. 102.

(٣٨) EVSEB. vita Const. III, 60.

(٣٩) Downey, op. cit. p. 352.

(٤٠) THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٤١) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(٤٢) EVSEB. vita Const. III, 60; SOCRAT. hist. eccl. I, 24; SOZOM. hist. eccl. II, 19; THEOD. hist. eccl. I, 20.

(٤٣) HIER. vir. ill. 85.

(٤٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

انطاكية وانقسم النـاس الى فريقين ، بين مؤيد للقرار ومعارض ، وحمل كلاهما السلاح واضحت المدينة على شفا الحرب الأهلية ، وارتاع الامبراطور لهذه الأحـــداث ، واصبح الامر فى نظره غاية فى السوء ، وامتلأ على حد تعبير سوزومين غيظا وحنقا ، وأرسل على الفور من لدنه قائدا كبيرا خوله سلطات ضخمة لاخماد هذه الفتنة(٤٥) هو موزونيانوس Musonianus (٤٦) ووضع حد لهذا الاضطراب دون اللجوء الى العنف كلما أمكن ذلك(٤٧) ٠

وتضطرب الروايات فيمن خلف يوستاتيوس على أسقفية انطاكيـــة ، فسقراط(٤٨) وسوزمين(٤٩) يعطيانا اسم يوساب القيسارى مباشرة مرشحا لهذا المنصب ، على حين نعلم من رواية أخرى أن باولينوس أسقف صور قد خلف الأسقف الأنطاكى المعزول مدة ستة أشهر فقط(٥٠) ، ثم تبعه بعـد ذلك يولاليوس Eulalius والذى لم يمض عليه الا زمن يسير وذلك حسب رواية ثيودوريت(٥١) ٠ ثم رأى الأساقفة بعد ذلك ترشيح يوساب القيسارى لشغل كرسى الأسقفية الشاغر(٥٢) ٠ ويقول سوزومين : لقد دخل فى روع اولئك الأساقفة الذين اجتمعوا فى انطاكيـة واصدروا قرارهم بعزل يوستاتيوس ، أن هذا القرار سوف يلقى استحسان الجميع عامة والامبراطور خاصـة اذا ما رفعوا الى الكرسى الأسقفى بدلا منه رجلا يميل الى آرائهم معروفا لـدى الامبراطور قريبا منه ، مرموقا فى علمه وفصاحته ٠ ومن ثم قـر رأيهم على يوساب القيسارى ، وكتبوا الى الامبراطور بخصوص هذا الموضوع واكدوا له أن هـذا الاقتراح يلقى استحسان الأساقفة ورضاء الرعية(٥٣) ٠ غير أن

---

(٤٥) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(٤٦) Downey, op. cit. p. 352.

(٤٧) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(٤٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 24.

(٤٩) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

(٥٠) مات باولينوس قبل مجمع نيقية ٠ انظر :
McGiffert, op. cit. p. 45.

(٥١) THEOD. hist. eccl. I, 21.

(٥٢) Id.

(٥٣) SOZOM. hist. eccl. II, 19.

يوساب رفض قبـــول هـــذا المنصب وكتب الى الامبراطور رسالة بهـــذا المعنى(٥٤) ٠

وكان قرار يوساب بعدم قبول هذا الكرسى الشاغر دليل حصافة وحسن رأى من جانبه ٠ فقد رأى أن انقسام الأنطاكيين سوف يزداد حدة اذا ما رأوا أن يوساب خصم يوستاتيوس اللدود قد أصبح أسقف المدينة ، وكان يوساب غير راغب فى احـداث صـــدع فى الكنيسة(٥٥) ٠ هـــذا بالاضافة الى أن هذا المكان الجديد ما كان ليجذب رجلا فى مثـــل عمر يوساب كان مزاجه آنئذ محبا للسلام وذوقه مدرسيا ، ففى قيسارية قضى يوساب الجزء الأكبر من حياته ، وبها مكتبـــة أستاذه بامفليوس تحت تصرفه ، كما أن الفرصة له هنا سانحة لمتابعة أعماله الأدبية والعقائدية ٠ أما فى أنطاكية فلسوف يجـد نفسه مرغما على الغوص فى فتن من كافة النواحى ٠ وسوف يجد نفسه ملزما لتكريس انتباهه فى انجاز مهامه الرسمية وحدها(٥٦) ٠

هذا من ناحية ، ومن الأخرى لا يخفى علينا علاقة يوساب بالامبراطور ، وكان الأول يعلم مدى حرص قسطنطين على وحـدة الكنيسة وبالتالى وحدة الدولة ، ويدرك تماما ما انتاب الامبراطور من ضجر وغيظ لـــدى سماعه بانقسام رجال الكنيسة فى مصر وما جره هذا الانقسم على كنائس الشرق من فرقة وتخاصم ٠ ولذلك ما كان يوساب يرغب مطلقـــا فى أن يزيد الى آلام الامبراطور جرحا آخـــر بالعمل على استفحال الفوضى والاضطراب والشقاق فى أنطاكية ٠ وما كان ليجر على نفسه غضب الامبراطور ونقمته ، بل لا شك أن يوساب كان يعلم أن الامبراطور سوف يرفض مثل هذا الاقتراح، لهذا آثر الانسحاب بنفسه قبل أن يرغمه الامبراطور ٠

تبدى اهتمام قسطنطين البالغ بهذه المشكلة فى الموقف الذى اتخـــذه حيالها ، فقد بعث بثلاث رسائل الى شعب أنطاكية ويوساب ومجمع الأساقفة بها ، وتعد الأولى أهم هذه الرسائل على الاطلاق لانها تفصح بجـــلاء عن

---

(٥٤) Id.; SOCRAT. hist eccl. I, 24.

(٥٥) McGiffert op. cit. p. 22.

(٥٦) Id.

قلق الامبراطور واضطرابه ورغبته فى حسم هذا الأمر بصورة فعالة · وقد بدأ قسطنطين رسالته بمقدمة طويلة عن السلام والتمسك بالقـــانون الالهى وضرورة احلال الوئام بين الجميع · ثم يقول :

« لعلكم الآن تقفون مشدوهين ،ولعلكم أيضا فى حيرة من أمركم تتساءلون ماذا يعنى بهذا التمهيد ؟ ! بلا حذر سأجيبكم وبلا تردد · أصدقكم القول ·· ما أن طالعت كتاباتكم الى والتى تعلى فى الخافقين ذكـــر يوســاب أسقف قيسارية ، ذلك الرجل الذى أعرفه حق المعـرفة وأكن لعلمه واعتـــداله كل تقدير ، حتى أدركت أنـــكم به متعلقون ، وفى الاستئثار به راغبون ·· اية افكار اذن تظنون أنى أحملها حول هذا لأمر ، وأنتم تعلمون رغبتى فى البحث من أجل الحق واتباع مبادئه ؟! ألا تدرون أى قلق انتابنى لرغبتكم هذه ؟ ··· ان الذى جعل من الحفاظ على السلام مبتغاه يغدو سيدا على النصر ذاته · وحيث يبدو الطريق عند أى اختيار قويما بينا ، فلن يتردد امـرؤ أن يسلك جادته · والآن ·· اخوتى ، انى لأتساءل ·· لماذا نقدم على اختيار قد يلحق بالاخرين بالغ الضرار ، لماذا نتشهى أمورا لابد ملحقـــة بسمعتنا الدنس ؟! انى لأكن ذاتى لهذا الذى أوليتموه كل احترامكم والحب ، التقدير · الا انه بالرغم من ذلك لا يصح بنا أن نغض الطرف عن تلك المبـــادىء التى يجب على جميعنا مراعاتها ، فينال كلنا حقه المشروع ، وليس من الصواب عند النظر فى ادعاءات مرشحين آخرين ، افتراض أن واحـــدا بعينه استحوذ الصـــلاح كله · فقد يكون هنـــاك كثيرون بالمنصب جـــديرين · وحيث أن الكنيسة لا تتعرض كرامتهـــا للعنف والغلظة ، فان هـــؤلاء جميعا يصبحون على قدم المساواة ويستحقون اذن منا نفس التقدير »(٥٧) ·

على هذا النحو راح قسطنطين يرغب أهالى انطاكية بجميل القـــول عن اختيار يوساب القيسارى أسقفا خلفا لليوستاتيوس وأوضح لهم بمعسول الحديث أن هنـــاك غير يوساب كثير من الكفاءات والقـــدرات التى يمكن

---

(٥٧) EVSEB. vita. Const. III, 60.

ان تقوم بنفس عمله هذا · على أن الشيء الواضح فيهذا الجزء من الرسالة هو ما عبر عنه قسطنطين صراحة من قلقه الشديد لهذه الرغبة التي تراود اهل البيعة الأنطاكية · وهذا شيء يفيض به الجزء البـــاقي من الرسالة ، وفيه نهج الامبراطور نهج الحزم والصرامة مبـــديا سخطه وامتعاضه لما ينتوى الأنطاكيون القيام به · يقول :

« اذا كان الأمـــر كذلك فدعونى أقول لكم انكم بهذا تضعون انفسكم موضع الاتهام ، لا بالاستئثار بهذا الكاهن فحسب ، بل بنقله بغير طريق الصواب ، وعندها يتسم مسلككم بالعنف لا بالعدل ، وعلى اى نحو فكر الآخرون فانى اؤكد لكم صراحة وبلا مواربة أن هذا الاجراء سوف يفجر اســوا اضطراب حزبى ، ذلك أن الرعيـــة حتى ولو كانت مسالمة الا انه فى مقدورها ابداء سلطان الحق فى قوة عندما تبدا عناية راعيهم فى التقلص ، ويجدوا انفسهم وقد افتقدوا حسن رعايته ·· واذا كانت المسالة اذن بهـــذا الشكل - واذا لم يخدعنى التقدير ، فليكن هذا ايها الأخوة أول الاعتبارات امامكم ، فهناك العديد من هام القضايا لا يلبث أن يفرض نفسه عليـــكم ، اذ انتم ما تصون على عزمكم ·· ولكن اليس معنى هذا أن يتعرض الحب والتناغم القـــائم فيـكم للانحسار ، ولتتذكروا ثانية أن هذا الذى حل بينكم يخلص النصح ، ينعم الآن بمـــا يستحق من ثواب علوى لانه تلقى جزاء غير عادى من واقع شهادتكم الصادقة عن مسلكه القويم ·

واخيرا ·· وتمشيا مع تقديركم الصائب ، هل باختياركم هذا الرجـــل الذى تشعرون بالحاجة اليه ، قد ابديتم الحصافة اللازمة فى هذا الاختيار وانتم تعلمون ما يتبع ذلك من قيام الشغب والفرقة ، وهل تعلمون أن هـــذا هو الخطأ بعينه ؟ وان الصدام بين الفرق المختلفة قد يولد شرارا ولهيبا »(٥٨) ·

واختتم قسطنطين رسالته بقراره النهائى الذى لا يقبل الجـــدل أو المناقشة والذى أضحى تنفيذه على الجميع واجبا :

---

(٥٨) EVSEB, vita. Const. III, 60.

« انى لأحتج بشدة على مسلككم ، فذلك شيء لايرضى اللـــه · وليس من صالحـكم فى شيء ، كما انى أرى فى موقفكم هـــذا تهديدا لمشاعرى التى تبغى الاستمتاع بالسعادة والغبطة التى تجمعنى واياكم وامنياتكم ·· انى لأحبيكم ، خاصة وقد لفظتم من بينكم تلك الضـــلالة واقمتم مكانها سامى الخلق والوفاق ، فثبتم بذلك عالم السلام المقـــدس ، حتى ليحق للمرء أن يقول انكم محصنون بخوذة حديدية وانتم تصعدون درج السماوات العـلا · ولتحملوا فى سفينكم تجـــارة لاتفسد ، لأنكم قـــد أفلحتم فى نتح ماء كان يتهددها بالغرق · ولتعنوا من الآن فصاعـــدا ، لضمان الحفاظ على النعم التى تتقلبون فيها ، حتى لا يقول عنكم الناس فيما يعـد أنكم تمسكتم بنزوة خاطئة او حمـــاس معيب · او أنكم اندفعتم فى حمق تتخبطون فى دروب المجهول · لعل الله يحفظكم أيها الاخوة الأحباب »(٥٩) ·

هكـذا أفصح قسطنطين صراحة عن رأيه فى ترشيح يوسـاب ، فقـد كان الرجل صـديقه الحميم ، وكان الامبراطور يحمل كل تقـدير واعجاب ، ولكن صالح الدولة العـام أهم بكثير من كل هذه الاعتبارات ، ومن ثم راح يحذر الرعية الأنطاكية من الاقدام على مثل هذا الاجراء لما سينتهى اليه ذلك من ازدياد حدة الانقسام وعموم الفوضى والاضطراب ·

وكم كانت سعادة الامبراطور عنـدما أتاه خطاب يوساب يعلن له فيه رفضه قبول هذا الشرف الذى اقترح أهالى أنطاكية والأساقفة خلعه عليه ، معلنا تمسكه بالتقاليد الكنسية التى تحـرم انتقال الأساقفة من بيعهم الى أخر · فرد عليه الامبراطور برسالة امتدح فيها خلقه القويم وحسن سلوكه·· جاء فيها :

« لقد طالعت باهتمام كبير رسالتك ، وأدركت منها مدى تشبثك بالقاعدة التى ارتضتها الكنيسة · وان التزامك بما يبهج الاله ويتفق والعرف الرسولى لبرهان على تقواك ·

---

(٥٩) Id.

وبهذا يحق لك أن تشعر بغبطة أنت بها جـدير ، لأنك قمين بأن تكون أسقف عالم بأسـره . فأنت تملك البصـيرة التى تتمناها أية كنيسـة · وما من شك فى أن الرغبة التى أبداها الجميع للاحتفاظ بك (راعيا) قـد برهنت على مستقبل لك باهر يحسدك الـكل عليـه ·· وعلى الرغم من ذلك ، فان نيافتـكم ، فى اصراركم على مراعاة الشرائع الالهية والقوانين الرسولية ، قد فعلت حسنًا برفضك أسقفية أنطاكية · ورغبتك البقاء فى بيعتك التى رسمت عليها من قبل بارادة الله ·

ولقد كتبت فى هذا الصدد الى شعب أنطاكية ، والى زملائك الأساقفة الذين تقدموا الى فى هذا الأمر يطلبون نصحى ، واذا ما أطلعتم على هذه الرسائل فلسوف يتبين قداستكم أن العدالة لا تتفق مطلقا وما يرتجيه هؤلاء · لقـد كتبت اليهم بوحى من الله · على أنه يحسن التواجد فى مؤتمرهم حتى يعتمد هذا القرار فى كنيسة أنطاكية ·· حفظك الله أخى الحبيب(٦٠) » ·

اطمأن قسطنطين بذلك الى أن شعب أنطاكيـة لن يقـدم على ما انتواه بعد أن أنذره بالويل والثبور بغوامض الكلم أو صريحه ، وازداد اطمئنانه وهو يرى المرشح نفسه يقرر رفض الكرسى الأنطاكى ، وبقى على قسطنطين أن يضع بنفسه خاتمة هذا المشهد الأخير على مسرح أنطاكيـة · ولم تكن تلك هى الأولى من نوعها ، بل لقد سبقتها مشاهد أخرى قام فيها قسطنطين بنفس الدور ، بعد أن أضحى فى شئون الكنيسة على كل شىء قدير !! منح لنفسه الحق مذ ادعى أن السماء دون البشر هدته ،وتقدمت به اليه الكنيسة مذ سمحت له أن يقرر فى العقيدة ما يشاء ، فاذا كان هذا شأنه والعقيدة · فما باله والرجال !!

كان الأساقفة المجتمعون فى أنطاكية لا يزالون يقلبون الأمر بحثا عن أسقف جديد يخلف يولاليوس الذى لم يستمر فى منصبه سـوى ستة أشهر فقط ، وأنقذتهم من حيرتهم رسالة الامبراطور اليهم ، أشار فيها قسطنطين الى رسالته التى بعث بها الى أهالى أنطاكية ، وأرفق بها صـورة هـذه

---

(٦٠) EVSEB. vita. Const. III, 61.

الرسالة حتى « يقفوا على رأيه فى هذا الخصوص » ثم أومأ الى رسالة يوساب اليه والتى تضمنت اعتذاره عن قبول الأسقفية الأنطاكية ، واختتم رسالته بهذا الأمر الصريح ٠

« يحسن بنا أن نطلع نيافتكم فى هذا الأمر رأينا ٠ ذلك أنه قد نمى الى علمنا أن يوفرونيوس Euphronius الكاهن ، أحد مواطنى قيسارية كبادوكيا ، وجورج كاهن أرثوذا (الرستن) ٠٠ George of Arethusa الذى رسم قبلا على يد اسكندر فى الاسكندرية ، انما هما رجلان ذوا ايمان عميق ، وعلى هذا فانه يجدر بفخامتكم عند اختيار من يستأهل شرف الأسقفية من بين هذين الرجلين وسواهما ، أن تصدروا فى قراركم بوحى من تقاليد الرسل وبهذا يغدو فى مقدوركم توجيه سير الانتخاب بما يتواءم ونظم الكنيسة والعرف الرسولى حتى يتحقق النظام الكنسى ٠٠ رعاكم الله اخوتى الأحبة »(٦١) ٠

لم يكن أمام الأساقفة أن يسلكوا سبيلا غير الذى رسمه لهم قسطنطين٠ فقد اقترح عليهم أو بتعبير أدق أمرهم بالمفاضلة بين رجلين ، وعلى اثر تسلم هذه الرسالة قام الأساقفة برسم يوفرونيوس الكبادوكى أسقفا على أنطاكية(٦٢) ٠ ولكن هذا لم يمكث فيها الا عاما واحدا وبضعة أشهر ، فخلفه فلاكيللوس Flaccillus (٦٣) ، ويعلق ثيودوريت على ذلك بأن كل هؤلاء الأساقفة كانوا يدينون بالعقيدة الآريوسية(٦٤) ٠

وكان هذا الاجراء الذى أقدم عليه قسطنطين ، بتعيين الأساقفة ، كما حدث بوضوح عقب عزل يوساب النيقوميدى وثيوجنس النيقى سنة ٣٢٥ ، أو بترشيح أثنين للمفاضلة بين أحدهما ، كما هو حادث فى المشكلة الأنطاكية ، وهو ترشيح يحمل صيغة الأمر ، كان هذا كله سابقة خطيرة

---

(٦١) EVSEB. vita. Const. III, 62.
(٦٢) SOZOM. hist. eccl. II, 19.
(٦٣) THEOD. hist. eccl. I, 21.
(٦٤) Id.

فى تاريخ الكنيسة ، لم يتخل عنها خلفـاء قسطنطين ، وأضحت فى الوقت ذاته مثار جدل عنيف لقرون طويلة من تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، فيما عرف بمشكلة التقليد العلمانى ، وما صحبها من نزاع بين الامبراطورية والبابوية ٠

ولقـد كانت انطاكيـة تمثل مركزا غاية فى الأهمية بالنسبة لأباطرة الرومان ، فقد كانت دائمـا مبتغى ملوك فارس فى صـراعهم المستمر مع الامبراطورية الرومانيـة ٠ ولم يكن يغيب عن بال قسطنطين خطط سابور الثانى لاستعادة الأقاليم التى ضاعت أثنـاء الحرب الأخيرة بين الدولتين على عهد دقلديانوس ، كما لم يكن يخفى عليـه أيضـا مركز انطاكيـة الاستراتيجى فى أى حرب مقبلة مع فارس ٠ وقد قدمنا أن الملك الفـرسى كان ينتهج سياسة عدائية ازاء الرعايا المسيحيين هناك ٠ وعلى ذلك فمن المحتمل أيضا أن يكون قسطنطين قد سارع جاهدا لحل المشكلة الأنطاكية حتى يجنب المدينة اندلاع حرب أهلية قد تغرى الملك الفارسى بمحاولة استغلالها ٠ هذا بالطبع الى جوار السبب الرئيسى لدى قسطنطين وهو محاولة القضاء على أى انقسام قد تتعرض له الامبراطورية ٠

هدأت بهدوء الأحوال فى أنطاكية سريرة الامبراطور ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة ، ذلك الفريق الآريوسى ، ما كان ليرضخ بصـورة نهائية وهو يعتقد أنه يدافع عن عقيدة هى الصواب وحق اليقين ، وها هو الآن يتقدم وئيـد الخطو محاولا تثبيت أقدامه ، فالامبراطور قـد عفـ عن زعمائه ، واستطاع هؤلاء ازاحة خصم لهم لدود من كرسى أسقفية أنطاكية ، ولم يبق أمامهم اذن الا ألد هؤلاء الخصوم على الاطلاق ، أثناسيوس الأسقف السكندرى !

وكان قسطنطين قد بعث برسالة الى الاسكندرية يتوعد أسقفها بالعزل والنفى اذا رفض الامتثال لأوامره فى قبول أولئك الذين يرغبون فى العودة الى الكنيسة ، يعنى بذلك الآريوسيين والميليتيين ، غير أن أثناسيوس اصر على موقفه متحديا رغبة الامبراطور ، وكتب اليه محاولا اقناعه بأن أولئك

« المهرطقين » لا يمكن قبـــولهم فى الكنيسة الكاثوليكية(٦٥) · وكانت تلك اذن فرصة سانحة اهتبلها الفريق الآريوسى ليوغر صـــدر قسطنطين على أسقف الاسكندرية(٦٦) · وكان يوساب أسقف نيقوميديا هو الذى يترأس الان جمـــاعة الآريوسيين ، كمـــا كان من أبرز رجالهم ثيوجنس أسقف نيقية ، ماريس Maris أسقف خلقيدونية ، أورساكيوس Ursacius أسقف سينجيدونوم Singidunum (بلجـــراد) ، فالنز Valens أسقف Mursa (أوسيك فى يوغسلافيا)(٦٧) وراح هذا لفريق يوثق صلاته بجماعة الملتيين فى مصر فى محـــاولة لتوحيد جهودهما ضـــد الأسقف السكندرى(٦٩) · ولخمس سنوات تالية نشب صراع عنيف بين الفريقين ، استخدم كلاهما كل ما لديه من أسلحـــة الدعاية والاتهام ، والامبراطور ينفذ سياسته بدقة ، فتارة ينتصر لهـذا الفريق ، وأخرى يعدل عن رأيه ، وهـــو فى هذا وذاك تلهث أنفاسه فى محاولة للخلاص من هذا الشقاق فى الكنيسة الذى يهـدد الدولة كلها ·

رسم الحزب اليوسابى خطتـــه على مرحلتين ، الأولى اثارة غضب الامبراطور على أسقف الاسكندرية ، والثانية اشاعة روح السخط والتذمر عند الأساقفة جميعا على زعيم الايمان النيقى ·

كان يوساب ورفاقه يعلمون تماما مزاج الامبراطور وطبعه الأوتوقراطى ورغبته الجامحـــة فى الاستبداد بالسلطة ، ولم يكن من العسير على أحـد عايش قسطنطين فترة من الزمن وعاين الأحداث التى مر بهـــا ، أن يدرك على الفور نفسية قسطنطين · لقد كانت سياسته تتبلور حول شىء واحـد دلت عليه أحداث عصره منذ كان بعد فى بريطانيا ، ذلك هو دولة واحـدة وحاكم واحـد · ولم يكن قسطنطين ليقبل مطلقا بانقسام فى امبراطوريته ، كما لم يكن يسمح لانســان مهما بلغت منزلته أن ينازعه السلطان ، أو على

---

(٦٥) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(٦٦) Id.

(٦٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٦٨) Id.; ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
SOZOM. hist. eccl. II, 22.

الأقل ينتقض منه شيئا · من أجل هذا شاع فى الناس ، وروج له « مادحه » يوساب القيســـارى أنه « مبعوث الســـماء الى الأرض » ، « حـوارى المسيح » !!

وعلى أوتار الوحـدة الامبراطورية وانغـــام السلطان راح الفـريق اليوسابى يعزف للامبراطور لحنـا واحـدا طوال خمس ســـنوات ، حتى استطاع أن يجبره فى النهـاية على أن يصفق له ويخرج من حفل الترانيم تلك النغمة الشاذة الصادرة من كنيسة الاسكندرية !!

لما كان من غير المعقـــول اتهـام أثناسيوس بالهرطقة أو الزيغ ، فقد كان لابد من البحث عن طريق آخر غير طريق العقيدة ، ومن ثم اتهم الأسقف السكندرى بأنه قـد فرض ضريبة على المصـريين يؤدونهـا من الكتـــان لاستخدامه فى الرداء الكهنوتى(٦٩) · كما وأن هـــذه الضريبة قد جبيت عنوة ممن تقدموا بهـذا الاتهـــام(٧٠) · وكان ازيون Ision ويودايمون Eudaemon وكاللينيكوس Callinicus وهم من الفريق المليتى أصحاب ذلك الاتهـام(٧١) · ويجمع المؤرخون الكنسيون على أن ذلك كان نتيجـة اغراء يوساب ورفاقه · ولعلنا نلمس مدى الأهميـــة التى علقها الامبراطور على هذا الاتهام ، فقد كان فى حد ذاته اعتداء على سلطانه · اذ أرسل يستدعى اليه فورا أثناسيوس ليدفع عن نفســه ذلك القـــول ، وما كان أيســر على قسطنطين أن يرسل أحد موظفى البلاط مندوبا عنه لبحث القضية فى المنطقة ذاتها ، ولكن استدعاء أثناسيوس اليه يحمل فى طياته مدى نفوذ قسطنطين على رجال الكنيسة ورغبته الجامحة فى اخضاعهم لسلطانه · ويعـــد فى الوقت ذاته تحـــذيرا للأسقف السكندرى على مسلكه الســـابق تجـــاه الامبراطور ، برفضه تحقيق رغبة قسطنطين فى اعادة آريوس الى شـركة كنيسة الاسكندرية ·

ولقد تصادف وجـود قسيسين مصـريين فى العاصمة الامبراطورية

---

(٦٩) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.

(٧٠) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

(٧١) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

عندئذ هما أبيس Apis ومقار Macarius فتقدما الى الامبراطور ينفيان هذا الاتهام عن أسقفهم ، ويؤكدان له أن ذلك القول محض افتراء(٧٢) · ولكن ذلك لم يكن ليثنى الامبراطور عن عزمه فى استدعاء أسقف الاسكندرية · وما أن جاء هذا الى البلاط الامبراطورى حتى كان الفريق اليوسابى قد أعد ضده اتهاما جديدا يمس حياة الامبراطور ذاته ، فقد أذاع أن أثناسيوس يتآمر ضد الامبراطور ، وأنه أرسل صندوقا مملوءا بالذهب الى شخص يدعى فيلومنوس Philumenus كان رئيسا للحرس لتنفيذ مخططه(٧٣) · وقد قام الامبراطور بفحص هذه القضية ، فلما اتضح له فى النهاية كذب الدعوى لام المدعين ، وأطلق سراح المدعى عليه وسمح له بالعودة الى بيعته(٧٤) ، وشيعه برسالة الى رعيته يمتدح أسقفهم ويثنى على خلقه ونقاوة روحه معترفا به رجلا من رجال الله ، مبينا أنه لما كان الحسد وحده هو سبب اتهامه الان ، فانه بذلك ارتفع فوق مستوى متهميه والشبهات(٧٥) · ولم ينس قسطنطين فى رسالته أن يحث كلا من الفرق المتنازعة على الانصراف الى تبجيل الاله ورعاية حق أثناسيوس ، وأوصاهم بحسن السلوك تجاه بعضهم البعض · ويعلق سوزومين على ذلك قائلا : هكذا كتب الامبراطور الى الرعية يستحثها على الوئام والوحدة ساعيا الى منع حدوث أى انقسام فى الكنيسة(٧٦) ·

وعلى الرغم مما يبدو من سياق هذه الأحداث أن الامبراطور قد اعاد أثناسيوس الى كنيسته معززا مكرما ، الا أنه قد تأكد لديه أيضا أن وجود الأسقف فى حد ذاته بعدائه الذى يتبادله والفريق الآريوسى يعد مصدر خطر كامن وحقيقى ، وكان هذا هو ما يسعى اليه الحزب اليوسابى ، وكانت تلك هى الخطوة الأولى التى خطاها · وان كان الامبراطور قد ادرك أن الوقت لم يحن بعد للتخلص من أثناسيوس ·

---

(٧٢) ATHANAS. Apol. C. Arian. 60.
(٧٣) Id.
(٧٤) Id.
(٧٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٧٦) SOZOM. hist. eccl. II, 22.

بقى اذن أن يثير يوساب ورفاقه الأساقفة ضد أثناسيوس ،و لا يتأتى ذلك الا باظهاره فى صورة ،جل الدين الذى لا يحترم زملاءه رجال الاكليروس ويحتقر ذوى المرتبة الثانية منهم ٠

كانت مريوط Mareotes اقليما تابعا للاسكندرية ، وكانت تضم قرى عديدة تمتلىء بالسكان وبعدد من الكنائس الزاهرة ، وكانت كل هذه الكنائس تحت سلطان أسقف الاسكندرية(٧٧) ٠ الا أن شخصا يدعى اسخيراس Ischyras لم يكن من رجال الاكليروس ادعى لنفسه حق حمل لقب قسيس(٧٨) ٠ وكان هذا فى حد ذاته اعتداء على نفوذ الأسقف السكندرى ، وقد علم أثناسيوس بأنباء هذه الأحداث من قسيس هذه المنطقة عندما كان الأسقف يقوم بزياراته المعتادة للاقليم ، فأوفد الأسقف السكندرى قسيسا يدعى مقار بصحبة قسيس المنطقة لاحضار اسخيراس ، غير انهم الفياه يعانى آلام المرض ، فطلبا الى أبيه تحذير ابنه من التمادى فى غيه ، ولكنه ما ان أبل من مرضه ومنع بواسطة والده وأصدقائه من الاستمرار فيما كان يدعيه حتى فر هاربا الى الميليتيين(٧٩) ، ونعلم من سقراط أنه ارتحل بعد ذلك الى نيقوميديا ليكون على مقربة من زعيم الفريق اليوسابى ، ويخبرنا أيضا أن يوساب استقبله لا كأحد رجال الكنيسة فحسب بل وعده أن ينعم عليه بشرف الأسقفية كذلك اذا ما استطاع أن يجد اتهاما ضد أثناسيوس(٨٠) ٠ فاذاع اسخيراس تقريرا يعلن فيه أن مقار وصحبه أثناء حضورهم اليه اندفعوا تجاه المذبح وقلبوا المائدة ، وكسروا الأوانى المقدسة وأحرقوا الكتب ، وأن أسقفا يدعى أرسنيوس Arsenius قد قتل على يد أثناسيوس أيضا وجاء بيد مقطوعة ادعى أنها لهذا القتيل(٨١) ٠ ويخبرنا سقراط أن الاتهام الأول الخاص بمقار قد أعد بعد ذلك فى وقت تال ، بينما كان الاتهام الآخير هو الذى شغل الاذهان

---

(٧٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.

(٧٨) Id.

(٧٩) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(٨٠) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٨١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 63, 64, 65.

بادىء الامر(٨٢) ٠

ويذكر سوزومين(٨٣) أن ارسنيوس هـذا أسقف لمدينة Hypselitae (شطب جنوب أسيوط) ، ولابد أن يكون قـد أتى أمورا تخالف العقيدة أو النظام الكنسى ، وان كان سوزومين لم يدل الينـا باية تفصيلات فى هذا الخصوص ٠ ثم يضيف انه خوفا من عقـاب أسقفه هرب الى مـكان ما ، فاستغل الآريوسيون والمليتيون هـذه الفرصة وبحثوا عنـه حتى وجدوه واظهروا له كثيـرا من العطف والشفقة ووعدوه بالأمان اذا اطاع أمرهم ٠ هكذا يقول سوزومين(٨٤) ٠ ويبدو أن ارسنيوس كان واحدا من المليتيين ، يدل على ذلك موقع المدينـة التى كان راعيـا لكنيستها ، ومن ثم كان على خلاف مع أسقف الاسكندرية ، فاعتكف فى أحد الأديرة حيث وجـد العطف من الفريق المضاد لاثناسيوس ، وراح ينتقل من مكان لاخـر هربا من أسقف الاسكندرية الذى جد فى طلبه ٠

هـذه روايات يبدو فيهـا التوليف ، لا تثبت للنقد ، جرت بها اقلام مؤرخى الكنيسة ، وكلهم يحمل العـداء الدفين للآريوسية والمليتية ، ولكنا سقناها استكمالا لجو الصراع العقائدى الدائر آنذاك ٠

عندما شاعت هذه الاتهامات ، وملأت آذان الناس ، أدرك أثناسيوس انه من العسير عليـه تماما أن يدافع عن نفسه أمام أناس حكموا عليـه بارتكاب هذا الجرم مسبقا دون انتظار لفحص أو تمحيص ، ولكنه أصر على أن لا يضيع الحـق وسط زحـام الأباطيل(٨٥) ٠ وفى نفس الوقت عـلم الامبراطور بكل ذلك ، فسارع بالكتـابة الى دلماتيوس Dalmatius وقد أنطاكية يأمره ببحث هـذه المسألة واستدعاء الأحزاب المختلفة لتمثل أمامه للتحقيق ، وطلب اليـه معاقبة من تسببوا فى اشاعة هذه الفوضى بالقول وأرسل الى هناك أيضا كلا من يوساب وثيوجنس بعـد أن رأى ضـرورة

---

(٨٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.
(٨٣) SOZOM. hist. eccl. II, 23.
(٨٤) Id.
(٨٥) Id.

مناقشة القضية امامهما(٨٦) ، وقد أرسل دلماتيوس رسالة الى أثناسيوس يستدعيه فيها للذهاب الى انطاكية للدفاع عن نفسه(٨٧) · ويقول أثناسيوس انه على الرغم من علمه أن كل ما جاء فى اتهامات الفريق المضاد باطل وافتراء ، الا أن تحرك الامبراطور لبحث المسألة والاهتمام بأمرها جعله يعطى للامر اهتمامه البالغ(٨٨) · فقد كان الأسقف يعلم جيدا مدى حرص الامبراطور على القضاء على مثل هذه الفوضى ، وكان لديه سابقة فيما يختص بموقف الامبراطور لدى سماعه بضريبة الكتان والتآمر على حياته ·

وعلى هذا الأساس ما أن تسلم الأسقف السكندرى رسالة دلماتيوس حتى سارع بالكتابة الى كل زملائه من رجال الاكليروس فى مصر يستحثهم على الادلاء اليه بأية معلومات عن شخصية أرسنيوس هذا ومكان اختفائه ، لأنه على حد تعبيره لم يكن قد رآه لخمس سنوات تقريبا(٨٩) ، كما قام من ناحيته أيضا بارسال أحد شمامسته للبحث عن أرسنيوس فى كل مكان ، وقد جاء هذا الشماس الى طيبة واستطاع أن يعلم من بعض الرهبان أين يختبىء أرسنيوس(٩٠) · فلما وصل الى أحد الأديرة هناك ، انكر باترينس Patrines الراهب ويسميه أثناسيوس بينس Pinnes (٩١) ، وجوده لديه ، وكان المعتقد انه مختف هناك(٩٢) ، ذلك انه كما يقول سوزومين ما أن علم بقرب وصول الشماس حتى ارتحل خفية الى مصر السفلى ، فقام الشماس بالقبض على بينس وساقه الى الاسكندرية مع زميل له يدعى الياس Elias قيل انه سهل لأرسنيوس مهمة الفرار الى مكان آخر ، وسلم الاثنين الى السلطات الامبراطورية فى مصر ، فاعترفا أن أرسنيوس لا يزال على قيد الحياة ، وانه يعيش فى مصر(٩٣) ·

---

(٨٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٨٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

(٨٨) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

(٨٩) Id.

(٩٠) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(٩١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(٩٢) SOZOM. hist. eccl. II, 23.

(٩٣) Id.

وهـذه الأقوال عينهـا نعلمها ايضـا من رسالة حفظها أثناسيوس بعث بها بينس هذا الى يوحنا الأسقف المليتى ينبئه فيها تفصيلا بكل هذه الاحداث ويعتذر اليه عن اعترافه ببقاء أرسنيوس حيا ، لان بعض كهنـة الدير مثل بكيسيوس Pecysius وسلفانوس Silvanus أخ الياس ، وبولس Paul راهب Hypselae قد اعترفوا صراحة بأن أرسنيوس كان يقيم بينهم ، ثم يحذر يوحنا من التمادى فى اتهام أثناسيوس بهذا الادعاء خاصة بعد تكشف كل هذه الحقائق فى مصر(٩٤) · فلما تم ذلك كتب أثناسيوس الى الامبراطور يطلعه على كل هذه الأمور(٩٥) · فأصدر قسطنطين أوامره الى دلماتيوس بوقف اجراءات التحقيق فى هذا الحادث(٩٦) · وأمر يوساب وأعوانه الذين كانوا فى طريقهم الى الشـرق للاشتراك فى نظر القضـية بالعودة ثانية الى كنائسهم(٩٧) · وكتب رسالة الى أثناسيوس دعاه فيها الى الالتفات الى شئونه الكنسية والسهر على مصلحة رعيته دون أن يلقى بالا الى ترهات وأباطيل أولئك الحسود(٩٨) ·

ويتضح من رسالة الامبراطور مدى الدور الذى لعبه المليتيون فى هذا السبيل ، فهو يعزو اليهم كل هـذه الأحداث ويتهمهم بالزيغ والضلال خاصة « بعد أن ظهر للجميع أن من ادعـوا ذبحـه لا يزال حيـا باستطاعته أن يحدثهم » · ثم أنحى باللائمة على كل من يتبع خطاهم معلنـا أن العنـاية الالهية لا يمكن أن تمد لهم بعد هذه الافتراءات يد العون أو الرشاد ، واختتم رسالته برغبته الأكيده أن تقرأ على القوم جميعا حتى تصل الى آذان أولئك الذين تسببوا فى اثارة مثل هذه الاضطرابات ، ثم صـرح بأنه قـد قرر محاكمة هؤلاء الناس اذا ما اقدموا ثانية على ارتكاب مثل هـذه الفعال لا تبعا للشرائع الكنسية بل حسب القوانين المدنية ، لأنهم بذلك لا يتآمرون ضد الانسانية بل ضد العقيدة الالهية ذاتها(٩٩) ·

---

(٩٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 67.

(٩٥) Ibid. 65.

(٩٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 27.

(٩٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 65.

(٩٨) Ibid. 65.

(٩٩) Id·

ويذكر اثناسيوس أن اسخيراس قد بعث اليه برسالة بعد أن اتضحت كل هذه الأمور(١٠٠) يعلن له فيها أن كل الادعاءات التى ساقها ضده انما صدرت منه قسرا بعد أن أجبره على ذلك الفريق الآريوسى الميليتى ، ويعين له أسماء رجال منهم مثل اسحق Isac وهيراكليدس Heraclides واسحق أسقف لتوبوليس (اسنا) Letopolis ، وأن شيئا من هذه الاتهامات لم يكن صحيحا بالمرة ، ثم يرجوه أن يعفو عنه وانه يقبله ثانية فى جماعته(١٠١) · ثم عاود اسخيراس الكرة ثانية ، فكتب الى الأسقف السكندرى يستعطفه ويعلن له توبته ورغبته فى العودة الى حضن الكنيسة الكاثوليكية ، ووعده أن لا يصغى ثانية الى اقوال أولئك الذين جرفوه بادىء الأمر فى تيارهم ، والا يشترك معهم فى محفل أو يوافقهم الرأى ورجا اثناسيوس أن يرسل اليه ردا يطمئنه بتحقيق أمانيه ، وأن يكتب بالتالى الى الكنائس المختلفة يعلمها انه قد عفا عنه وانه عنه راض(١٠٢) ·

وقد ادرك يوحنا رئيس كنيسة الشهداء أن قرار الامبراطور بمحاكمة الميليتيين أمام المحاكم المدنية اذا ما استمروا فى عنادهم للاسقف السكندرى ، يعد تهديدا خطيرا لكيانهم وادرك أن الامبراطور لن يتورع فعلا عن تنفيذ ما اعتزمه ، ومن ثم بادر بالكتابة الى قسطنطين يخبره أنه قد عاد الى الوئام مع اثناسيوس وأن السلام قد حل بينهما ثانية(١٠٣) ·

وما أن تلقى الامبراطور هذه الرسالة حتى طرب لها وعد ذلك نهاية المطاف فى هذه الفوضى المستشرية فى مصر ، وقد كان قسطنطين ينظر بعين الخوف والريبة الى ما يمكن أن يحدثه النزاع بين الميليتيين وكنيسة الاسكندرية · فربما ادى به الأمر فى النهاية الى أن يمسى على شاكلة ذلك الصراع الكبير القائم فى ولاية افريقيا بين الدوناتيين والكنيسة الكاثوليكية · بل ان هذا الخطر القائم فى مصر يفوق قرينه الغربى ، فاذا كان الأخير قد

---

(١٠٠) لابد أن يكون هذا قد حدث بعد مجمع صور سنة ٣٣٥ لانا نعلم أن اسخيراس كان احد متهمى اثناسيوس فى المجمع ·

راجع : SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(١٠١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 64.

(١٠٢) Ibid. 69.

(١٠٣) Ibid. 70.

اقتصر على افريقيا وحدها ، الا أن المسألة المصرية شاركت فيها كل كنائس الشـرق ، وعلى ذلك فقد سـارع الامبراطور بالرد على رئيس الأساقفة الميليتيين يعبر له عن سعادته الغامرة حالة معرفته أنباء عودة السـلام بينه وأثناسيوس مرة أخرى ، تلك الأنباء التى كان يتوق الى سماعها لفتـرة طويلة مضت ، ويثنى على سلوكه ، هـذا الرأى أدخـل السرور على قلب الاله ، وأعاد الى الكنيسة وحدتها وأمنها ، ولم يتمالك قسطنطين نفسه فدعا يوحنا للشخوص على الفـور الى البلاط الامبراطورى حتى تشمله عن كثب بركات الامبراطور ورعايته(١٠٤) ٠

هكذا تبدى للجميع وقسطنطين خاصة أن الحال آخـذة فى الهدوء ٠ فالاتهامات التى سيقت ضد أثناسيوس من جانب خصومه قـد ثبت بصورة أو أخرى عدم صحتهـا ، ورئيس الأساقفة الميليتيين أعلن للامبراطور عودة الوئام مع الأسقف السكندرى ، وها هـو الآن يتأهب للرحيل الى العاصمة الامبراطورية لينال حظوة الامبراطور ، ولكن على الرغم من هـذا الهدوء الظاهرى الا أن الفريق الآريوسى كان يؤمن بعدالة قضيته ، فآريوس حقـا قد شمله عفو الامبراطور وعاد من منفاه ، ولكن كنيسة الاسكندرية لا زالت تلفظه خارجها ، ولن يتحقق نصر الآريوسية وبالتالى لن يعود السلام الى الكنيسة ما بقى آريوس خارجها ٠ ولن يعود هـذا الى الكنيسة اذا ظل فى الأسقفيـة أثناسيوس ٠ والامبراطور بين هؤلاء وأولئك أشبه شىء بقبطان تحطمت على الأمواج دفة سفينته ، فراح يضرب بيده يمنـه تارة ويسـرة أخرى ، ليصل بالسفينة الى بر النجاة ٠

عاود الفريق اليوسابى نشاطه ثانية فى دوائر البلاط ، وراح يوحى الى الامبراطور أن أثناسيوس لابد وأن يبرىء ساحتـه أمـام مجمع من الأساقفة يدعى لهذا الغرض ، ووافقت الفـكرة هوى الامبراطور ، وحسب أن فى عقد المجمع قضاء أخيرا على هذا الاضطراب ، وربما عد ذلك استكمالا لجهود المجمع الذيقى ، وعلى هذا الأساس وجه قسطنطين الدعـوة سنة ٣٣٣ الى الأساقفـة للاجتماع فى قيسارية فلسطين لبحث الاتهامات المثارة

---

(١٠٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 69.

ضد أسقف الاسكندرية ، وطلب الى هذا القـــدوم الى المجمع « ليدافع عن نفسه فى حضرة رجال الله »(١٠٥) ٠

قلنا آنفا أن سياسة الفريق اليوسابى قـد قامت على مرحلتين ، اثارة غضب الامبراطور على أثناسيوس ، واثارة سخط الأساقفة ضـده ، وحتى الآن لا يمكننا القول أنهم أفلحوا فى المرحلة الأولى تماما ، وان كانوا قـــد أدخلوا على الأقل فى روع قسطنطين أن ثمة عقبة تهدد سلام دولته والكنيسة ماثلة فى الأقف السكندرى ٠ وكانت الدعوة لعقد مجمع الاساقفة فى قيسارية نجاحا تاما للمرحلة الثانية من نضالهم ضد أنصار نيقية ، بل ان نجـــاح هذه الخطوة امتد أثره ليشمل الامبراطور أيضا ٠ وهكذا وفى جولة واحدة كسب اليوسابيون الى صفهم الأساقفة والامبراطور ، وقـــد ساعدهم على ذلك سلوك أثناسيوس نفسه وموقفه تجاه هذه الدعوة ٠

كان اختيار مكان المجمع دليـلا على سياســة قسطنطين فى ارتضائه الحلول الوسطى فى هذه المشاكل المعقـــدة ، فقيسارية فلسطين كانت تحت رعاية أسقفها يوساب صديق الامبراطور والمعروف بميوله المعتدلة ٠ فلا هو بقلبه يؤيد النيقيين ، ولا هو صراحة مالأ الأريوسيين ٠ ولما كان من البدهى أن يصبح يوساب القيسارى رئيسا لهذا المجمع المقترح ، فقد أمل قسطنطين أن يجد فى جهده رمزا ما للسلام ٠ ولكن أثناسيوس كان يرى فى يوساب هذا خطرا مباشرا عليـه ، خاصـــة وهو يعلم أن يوساب لن يكون صاحب الكلمة العليا الأولى فى المجمع مادام الى جواره أساقفة آخـــرون يمثلون العداء الصـارخ له على رأســـهم النيقوميدى وكثيرون غيره من رجـــال الآريوسية ، فتوجس فى نفسه خيفة أثناسيوس ، ورفض دعوة الامبراطور لحضور هذا المجمع وظل على عناده هذا طيلة ثلاثين شهرا رغم الالحـاح المستمر فى طلبه(١٠٦) ٠

هكذا أضاع الأسقف السكندرى من يده فرصة كسب الامبراطور الى صفه ثانية ، فقسطنطين لم يعتد من قبل أن يعترض أحد قراراته ، أو يحول دون رغائبه ، فعد هذا الرفض من جانب أسقف الاسكندرية تحديا لسلطانه ،

---

(١٠٥) THEOD. hist. eccl. I, 28.

(١٠٦) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

أما الأساقفة فأيقنوا أن أثناسيوس يسخر بهم ولا يعيرهم اهتماما ، وبذلك وفى وقت واحد ، ثارت حفيظة الامبراطور والأساقفة ضد أسقف الاسكندرية العنيد ٠

صمم الامبراطور اذن على أن يسير فى الشوط حتى منتهاه ، فوجه الدعوة من جديد لعقد مجمع للأساقفة فى صور نعلم من سقراط أن عددهم بلغ ستين أسقفا(١٠٧) ٠ وأرسل قسطنطين الكونت ديونيسيوس Dionysius الى هناك ، وكانت مهمته كما يتضح من رسالة الامبراطور الى الأساقفة ، « رئاسة وضبط أعمال المجمع والحفاظ على النظام »(١٠٨) ٠ كما كتب الى أثناسيوس يأمره بالذهاب الى صور ؛ ولكن الأسقف على حد تعبيره لم يكن راغبا فى ذلك ، الا أنه امتثل للامر على كره منه(١٠٩) ٠ ويتطوع سقراط للدفاع عنه قائلا ان امتعاض أثناسيوس من الذهاب الى هناك كان صادرا عن ايمانه ببراءته من كل التهم المنسوبة اليه ، هذا بالاضافة الى خوفه من حدوث أى اتجاه مضاد لقانون الايمان النيقى(١١٠) ، ثم يفصح سقراط عما حدث صراحة حين يقول « ان أسقف الاسكندرية أكره على الحضور تحت وابل من خطابات التهديد التى كتبها اليه الامبراطور متوعدا اياه بحمله على الحضور عنوة اذ لم يحضر طواعية(١١١) ٠

وقد كتب قسطنطين الى الأساقفة المجتمعين فى صور رسالة أبدى لهم فى بدايتها أمله الكبير فى أن تعود الى الكنيسة ثانية وحدتها ، ولام أولئك الذين أحدثوا هذا الشقاق والفوضى ، وحث الأساقفة جميعا على التزام جادة الحق والصواب فى تقصى الحقائق واظهار الحقيقة ، ثم اختتم رسالته بتهديد صريح جاء فيه :

« ولئن تجاسر أحد ، مع اعتقادى بأن ذلك لن يكون ، على عصيان أمرى ، ورفض الحضور الى المجمع ، فلأرسلن اليه من يطرده بواقع مرسوم

---

(١٠٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(١٠٨) EVSEB. vita. Const. IV. 42.

(١٠٩) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.

(١١٠) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.

(١١١) Id.

امبراطورى ويلقنـــه انه لا يليق بمثله أن يعترض قرارات الامبراطور حين يكون عن الحق دفاعه »(١١٢) ٠

ولا شك أن هـــذا التهديد موجه صراحة الى أثناسيوس ٠ وهكذا أقفل باب سلام يرتجى بين الامبراطور والزعيم السكندرى ،ولم يكن الامبراطور فى حاجة من بعد لمن يملأ قلبه حقدا على أثناسيوس أو كرها له ، فمالت كفة القدر مسرعة تجاه الفريق اليوسابى المليتى ٠

وفى منتصف عام ٣٣٥ التأم عقـــد مجمع صـــور ، واصطحب أسقف الاسكندرية معه عددا كبيرا من مؤيديه بلغ ثمانية وأربعين(١١٣) ، وسيق مقار من الاسكندرية الى صور مكبلا فى أغلاله(١١٤) ٠ ويصف اثناسيوس الحالة فى المجمع عندئذ بقـوله : تقاسم المليتيون الذين طردهم بطرس من الكنيسة ، والآريوسيون المؤامـرة فيما بينهم ، وعلى حين وقف فريق منهم ازائى موقف المدعى ، جلس الحزب الآخر فى منصة القضاء ٠ وقد اعترضت لدى يوساب موضحا أنه ليس من العدل أن يكون خصومى قضاتى ، وأوضحت للجميع أن اسخيراس الذى اتهمنى قبـلا لم يكن فى يوم من الأيام قسيسا ، واستشهدت على ذلك بتلك القائمة التى كان مليتيوس قد أعدها حسب رغبة اسكندر عن أتباعه فى أنحاء مصر كلها،١١٥) ، ومن خلالهـا لا يظهر اسم اسخيراس على الاطلاق ، ولم يبد البتة أنه كان أحـد رجال الاكليروس فى مريوط ٠ وعلى الرغم من كل ذلك الا أن خصومنا لم يتخلوا عن اتهاماتهم ، وكان الكونت على استعداد لاستخدام لعنف ضـــدنا وتسيير جنوده فى ذلك(١١٦) ٠

تولى المليتيون اقامة الدعوى ضـــد أثناسيوس ، فاتهمه كاللينيكوس Callinicus أسقف بلوزيوم Pelusium انه عـزل من منصبه ، وعين بدلا منه شخصا آخر ، ووضعه تحت حراسة عسكرية ، وراح يذيقه العذاب ألوانا

---

(١١٢) EVSEB. vita. Const. IV. 42.
(١١٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 78.
(١١٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 28.
(١١٥) ATHANAS. Apol. C. Arian. 71.
(١١٦) Ibid. 72.

حتى يحصل منه على اعترافات تدحض اتهـــام أثناسيوس بتحطيم الأوانى المقدسة ، واتهمه اسخيراس بأنه وضعه فى الاغلال رغم مرتبته الكهنوتية ، وأذاعو أيضا أنهم أنبأوا قبلا هيجينوس Hyginus احد موظفى الامبراطور فى مصر أنه قذف بالأحجار تماثيل الامبراطور(١١٧) ، وأشيلاس Achillas وباخـــوم Pachomius واســـحق Isaac أما يوبلوس Euplus وهرمايون Harmaeon وكلهم أساقفة مليتيون ، فقد راحـــوا يشككون فى الطريقة التى تم بها اختيار أثناسيوس للأسقفيـــة ، وأن ذلك تم بطريق غير شرعى بناء على تآمر بعض الأفراد ، مما دفع بهؤلاء الأساقفة الى قطع أنفسهم من الكنيســـة احتجـــاجا على ذلك ، فكان جزاؤهم أن ألقى بهم فى غيـــابة السجون(١١٨) • كما أثيرت من جديد مسألة مقتل أرسينيوس(١١٩) •

وفيما يخص هـــذا الاتهـــام الأخيـــر ، يذكر سقراط أن أرسينيوس ، متجاهلا التحذيرات التى وجهت اليه من الفريق اليوسابى المليتى ، جـــاء الى صور متنكرا ليشهد أحداث المجمع ، وقد نمى الى علم خدم أرشيلاوس Archelaus حاكم الأقليم ،أن أرسنيوس ، الذى من المفـــروض كونه فى عداد الأموات الآن ، يوجد متخفيا عند أحد المواطنين • فما لبثوا أن نقلوا ذلك الى سيدهم الذى أصدر أوامره بالبحث عن الرجـــل ، فلما عثر عليـــه وجىء به أنكر شخصه ، ولكن بولس أسقف صور تعرف عليه ، وعنـــدما أحضر الى المجمع ورأى الجميع أن يديه سليمتان خاطبه أثناسيوس قائلا : « أرسنيوس •• ها أنت كما ترى تمتلك كفين ، فدع متهمى يشيرون الى مكان اليد الثالثة التى قطعت »(١٢٠) •

وقد استطاع أثناسيوس أن ينفى عن نفسه كثيرا من هذه الاتهامات التى وجهت اليه • غير أن الحيرة انتابته أمام هذا الجم الغفير من الشهود الذين أحضرهم خصومه ، ومن ثم أدرك الأسقف السكنـــدرى أن أعـــداءه

(١١٧ SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(١١٨ Id.

(١١٩ Id.

(١٢٠ SOCRAT. hist eccl. I, 29; SOZOM. hist. eccl. II, 25; THEOD. hist. eccl. I, 28.

عازمون على تحطيمه تماما · وقد عقد المجمع جلساته التى غرق فيها فى بحر من الفوضى والاضطراب ، وتعالت صيحات الكثيرين تطالب بعزل أثناسيوس ، ولم يحسم الأمر الا تدخل ديونسيوس المندوب الامبراطورى(١٢١) ·

وكانت مسألة اتهام مقار بتحطيم الأوانى المقدسة الموضوع الذى شغل الأساقفة لفترة طويلة ، واحتاج الامر الى تأليف لجنة لتقصى الحقائق تقرر ارسالها الى مريوط لبحث القضية فى موضعها(١٢٢) ·وتألفت اللجنة من ثيوجنس ، وماريس ، وثيودور ، وماكيدون ، وأورساكيوس وفالنز(١٢٣) · احتج أثناسيوس على تشكيل اللجنة بهذه الصورة لأنها تضم أبرز خصومه ، كما احتج أيضا على اصطحاب اسخيراس معهم فى الوقت الذى بقى فيه مقار رهين قيوده(١٢٤) · وكان أثناسيوس قد اعترض بداءة على ايفاد لجنة الى مريوط على الاطلاق مبينا لديونيسيوس عدم جدواها(١٢٥) · ويعلق جونز على ذلك بأن اعتراض الأسقف السكندرى على ارسال اللجنة يشير الى احتمال صحة هذه الأحداث فعلا ، يعنى تحطيم الأوانى المقدسة(١٢٦) ·

وكتبت رسالة الى حاكم مصر ، وزودت اللجنة بالعون العسكرى اللازم لحمايتها(١٢٧) أما أعمال اللجنة فى مصر فنقف عليها من رسالة قساوسة مريوط الى الأساقفة المجتمعين فى صور ، وقد ذكروا فيها ما سبق أن أوضحه أثناسيوس من أن اسخيراس هذا لم يكن فى يوم من الأيام رجلا من رجال الاكليروس ، وأنه انما تم رسمه على يد كوللوثوس Colluthus الكاهن الذى ادعى الأسقفية على عهد اسكندر ورسم عددا من القساوسة ،

---

(١٢١) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(١٢٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 31.
(١٢٣) Id.
(١٢٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.
(١٢٥) Id.
(١٢٦) Jones, Constantine, p. 195.
(١٢٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

وتمت ادانته واعادته الى رتبته الكهنوتية (قسيس) بواسطة المجمع الذى عقد فى الاسكندرية سنة ٣٢٤ تحت رئاسة هوسيوس القرطبى ٠

أما فيما يختص بعمل اللجنة فذكروا أنهم اصطحبت معها فيلاجريوس Philagrius والى مصر وعددا من جنده ، ولما تقدم اليهم رجال الاكليروس يطلبون اشراكهم فى اجـراءات التحقيق ، رفضت اللجنة سماع مقترحهم ، وتمكنوا عن طريق القـوة والتهديد من جانب الوالى ، كما تقول الرسالة ، من الحصول على البيانات التى يريدونها ، وعادوا أدراجهم ثانية(١٢٨) ٠ وعلى غرارها كتب هؤلاء القسيسون رسالة الى فيلاجريوس يوضحون له حقيقة الأمر(١٢٩) ٠ أما الأساقفة المصريون الذين صحبوا أثناسيوس الى المجمع فقد كتبوا رسالة الى ديونيسيوس المنـدوب الامبراطورى أوضحوا له فيها أن المسألة محض مؤامرة حاكها ذلك الفريق اليوسابى بغية تقويض الايمان القويم ،والتخلص من زعيمه المدافع عنـــه أثناسيوس ، وأضافوا أن مريوط لم يكن بها أحد من الميليتيين قبلا ، أما الان فهى تفيض بهم بعـد أن أرسل الميليتيون الموجودون فى المجمع رسولين من لدنهما بعد أن سمعوا بقرب سفر اللجنة لتجمع الميليتيين وتحشدهم فى مريوط ، هذا بالاضافة الى الآريوسيين والكاللوثيين ، وحذروه من التمـادى فى اطاعة هـــذا الفريق حتى لا يجلب على نفسه غضب الرب ورجاله(١٣٠) ٠

ويبدو أن ديونيسيوس لم يلق بالا الى هـــذا الاحتجاج فما كان من الأساقفة المصريين هؤلاء الا أن بعثوا اليه خطابا شديد اللهجة جاء فيه :

« انا نرى أنفسنا مرغمين على الشكوى ثانية ، لقد لاحظنا أن تأييدا كبيرا قد أصبح الان فى جانب الميليتيين ، وأن مؤامرة ضد الكنيسة الكاثوليكية فى مصر ، فى أشخاصنا ، قد دبرت ٠ وعلى ذلك ، نقدم هذه الرسالة اليك راجين أن تضع فى عقلك قوة الاله القـــدير الذى يحمى مملكة امبراطورنا التقى الورع قسطنطين ، وأن تنقل الى مسامع الامبراطور ذاته كل هـــذه الأمور التى تهمنا ٠ لقد بعثت من قبل عظمته لتعى تماما هذه الأحداث ، ولتعلم أنا

---

(١٢٨) ATHANAS. Apol. C. Arian. 72.

(١٢٩) Id.

(١٣٠) Ibid. 78.

لم نعد نحتمل أن نغـــدو على الدوام هدفا لخيانات ودسائس أولئك السابق ذكرهم • يوساب وبطانته ، وعليه فرجوك أن تعرض قضيتنا على الامبراطور الورع محبوب الرب ، أمـام ذلك الذى يمكننا أن نعرض عليـــه شكاياتنا والكنيسة ونحن واثقون أنه عند سماعه قضيتنا ،لن يدينا • ولذلك نناشدك ثانية بالاله القدير ، وبامبراطورنا المحبوب الذى فاق الصغار فى تقواهم ، فكسب النصر وحقق كل هذه النعم طوال هذه السنين ، لا ترهقوا أنفسكم فى محـــاولة عرض أمـــرنا على المجمع ثانيـــة ، بل أبلغ الامبـراطور أمرنا »(١٣١) •

ولعل هـــذا القول الأخير يذكرنا بالتيار الذى سارت فيه المشـــكلة الدوناتية قبـــلا ، عندما رفض زعماؤها الامتثال لأوامر مجمعى روما وآرل واحتكموا للامبراطور شخصيا • وها هم الأساقفة المصريون يسلكون نفس السبيل ، بعد أن أصبح واضحا لهم أن الاتجاه السائد فى مجمع صور قد نحا نحوا مضادا لهم • ومن ثم أدركوا أن شيئا من الأنصاف لن يتيسر لهم الحصول عليه ، فلما لم يصغ ديونيسيوس لرجائهم ،لم يجـــد زعيمهم بدا من عرض الأمر بنفسه على الامبراطور ؛ وعلى هذا النحو شخص أثناسيوس الى القسطنطينية لمقابلة قسطنطين والاحتكام اليه(١٣٢) •

أدرك ديونيسيوس أن الأمر قد أفلت من يديه ، وخاصة بعد أن أرسل اليه اسكندر أسقف سالونيكا رسالة يستنكر فيهـــا سماحة لهـــؤلاء الأفراد بالذات الذهاب الى مصـــر ، ويحيطه علمـــا أن تلك مؤامرة مدبرة ضـــد أثناسيوس ، ويلومه على هذا التخاذل ازاء الفريق اليوسابى المليتى(١٣٣) •

وعلى ذلك فقد كتب ديونيسيوس الى يوساب واتباعه رسالة ينبئهم فيها بقول اسكندر مؤيدا ما جاء فيه ، ويبدو من عبارات رسالته أنه يستعطف هـــذا الفريق لالتزام جادة الصواب حتى لا يكون عملهم محل لوم أو نقد(١٣٤) •

---

(١٣١) ATHANAS. Apol. C. Arian. 79.

(١٣٢) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

(١٣٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 80.

(١٣٤) ATHANAS. Apol. C. Arian. 81.

أخذ يوساب ورفاقه الان بيدهم زمام المبادرة ، وانتهزوا فرصة غياب أثناسيوس عن المجمع قبل أن ينهى هذا أعماله ، وكانت التقارير التى أعدتها لجنة تقصى الحقائق العائدة من مريوط قد أعدت واطلع عليها الجميع(١٣٥)، فأصدر المجمع قراراته بادانة أثناسيوس وعزله من منصبه ، وحرم عليه الاقامة فى الاسكندرية خشية أن يؤدى وجوده فيها الى اشعال نيران الفوضى والانقسام من جديد ، كما أعيد يوحنا رئيس الأساقفة وتابعيه ثانية الى الكنيسة ورد الى كل منهم مركزه الاكليروسى(١٣٦) · وكان من بين المقبولين ثانية أرسنيوس ، وقد وقع على قرار عزل أثناسيوس بوصفه أسقفا لمدينة Hypsalopolis (١٢٧) · وبعث المجمع بتقرير عن عمله الى الامبراطور ، وبمثله الى أساقفة مختلف البلدان ناصحين اياهم بعدم قبول أثناسيوس فى زمالتهم وأن لا يكتبوا اليه أو يتلقوا منه أية رسائل · وذكروا فى رسالتهم هذه أنهم اضطروا للموافقة على ادانة أسقف الاسكندرية لأنه رفض الامتثال للامر الامبراطورى الصادر اليه قبلا بالحضور أمام الأساقفة فى قيسارية ، مستخفا بالاساقفة ، متحديا أوامر الحاكم ، هذا بالاضافة الى أنه حضر الى صور وبصحبته عدد كبير من الاتباع بغية اثارة الاضطراب والفوضى فى المجمع ، كما أن أثناسيوس رفض فى كثير من الأحيان الاجابة عن الاتهامات الموجهة اله ، وأهان بعض الأساقفة ، وأوضحوا فى نفس الرسالة أنه أذنب ولا شك حين سمح لمقار بتحطيم الأوانى المقدسة كما شهد بذلك أعضاء اللجنة(١٣٨) ·

هكذا اختتم مجمع صور جلساته بعد أن أدان وعزل وطالب بنفى أثناسيوس وقدم فى ذلك تبريراته الى الامبراطور والأساقفة ، على أنه ينبغى لنا أن ندرك أن هذه الاتهامات العديدة التى سيقت ضد الأسقف السكندرى وان كان فيها الكثير من الغموض وربما الزيف · الا أنها لا شك أيضا تحمل

---

(١٣٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(١٣٦) SOZOM. hist. eccl. II, 25.
(١٣٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 32.
(١٣٨) SOZOM. hist. eccl. II, 25.

جانبا ولو يسيرا من الحقيقة ، ولعل دليلنا على ذلك أن هذه المعلومات كلها استقيناها ، من أقلام أثناسيوس نفسه ومؤرخى الكنيسة الاخرين · وهـذا ولا شك شيء يدعو للحذر ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فان تتبع هذه الأحداث يرينا أن أسقف الاسكندرية كان بلا ريب يتمتع بشخصة قـوية ونفوذ كبير ، ويبدو من سلوكه طوال هذه الفترة مدى صلابة رأيه وتمسكه الشديد بكل ما تقر عليه ارادته · هذا واضح من تحـديه المستمر للفريق الآريوسى ، بل ورفضه الفريق المنيتى الذى كان اسكندر قد قبلهم ثانية بناء على قرارات المجمع المسكونى الأول فى نيقيـة ، فلا شك اذن أن يؤدى ذلك الى اثارة حفيظة وغيرة كثير من زملائه رجال الاكليروس لا فى مصر وحدها بل فى كنائس الشرق الأخرى · وكانت نيقوميديا على رأس هذه الكنائس ، واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن نيقوميديا قـد ظلت لفتـرة تقترب من نصف قرن عاصمة الامبراطورية ، فلا عجب أن يتطلع أسقفها الى شيء من الزعامة على سائر الكنائس الأخرى ، بل وان يتطلع هو نفسه لأسقفية أكبـر من نيقوميديا ، وسينجح يوساب فعلا فى ذلك عندما يصبح أسقفا للقسطنطينية ، وان كان ذلك قد تم بعد وفاة قسطنطين · ومن ثم رأينا يوساب يتزعم حركة المعارضة ضد كنيسة الاسكندرية ، واذا كانت هذه تعتز بتراثهـا التليد وفلسفتها ومدرستها اللاهوتية وأثرها الواضح على المسيحيـة ، وما كان لها بكل هذه العظمة أن تقبل الخضوع لمدينة لا تدانيها فى شيء من هـذا ، فان نيقوميديا وليس لها من هذا شيء ، لابد وأن تعتز بأنها مقر الأباطرة وعاصمة ملكهم ، وأنه ليس من حق أسقفية ولاية أن تنازع أسقفية العاصمة وحتى عندما انتقلت العاصمة الى القسطنطينية فى ١١ مايو سـنة ٣٣٠ لم يكن لكنيستها خلال الفترة الباقية من حكم قسطنطين شأن يذكر فى تسيير دفة الأحداث ·

لقد تحولت المسألة بعد مجمع نيقية الى صـراع على الزعامة تحت ستار العقيدة ،ويقول جلانفيل‌دوانى Glanville Downey « ليس‌غريبا أن يظهر نوع من الأساقفة الدنيويين السياسيين الذين لم يدّرسـوا أنفسهم لرعاية رعيتهم فى البلدان النائية بقدر ما وجهوا عنايتهم الى المناورات الدبلوماسية فى البلاط الامبراطورى ، وذلك عندما قامت الخلافات العقائدية وتدخـل الامبراطور لحلها ، فأصبح واجبـا على الجهات المتخاصمة فى الكنيسة

أن تسعى الى كسب الامبراطور ومستشاريه الى صفها(١٣٩) · فآريوس صاحب هذه الأحداث منذ البداية أخلد بعد نفيه الى الهدوء ، ولم يأت به الى مسرح الأحداث ثانية الا الامبراطور ذاته وربما على كره من آريوس نفسه كما اتضح من رسالة الامبراطور اليه ، وحتى بعد عودته ظل بعيدا لا يشارك فى شيء من هذه الحوادث كلها · لقد كان الرجل شيخا طاعنا ، ولم يكن له مطمع فى جاه أو مطمح الى سلطان ، بل كل ما كان يرجوه أن يقر الناس عقيدة آمن بها وأيقن أنها الحق المبين ، وما عداها افك وضلال · على حين كان يوسابيوس هو المحرك الأول لكل هذه الأحداث بعد مجمع نيقية وطوال عشر سنوات كاملة (٣٢٨ ـ ٣٣٧) ،ولم يأت على لسان الاطراف المتنازعه ، ولم تسجل أقلامهم خلال هذه المرحلة التى شهدناها بعد نيقية شيئا من أمور العقيدة ، ولم تمس الاتهامات التى وجهت الى أثناسيوس طرفا من رداء الدين ، ولم يتعرض مجمع الأساقفة فى صور الى العقيدة فى قليل أو كثير ، بل حتى لم يطلب اليه بحث مسألة اعادة آريوس الى الكنيسة وهى المشكلة التى كان يجب أن تحتل المكان الأول فى قائمة موضوعات الساعة ، وحتى مبررات الحكم ضد أثناسيوس كانت كلها تدور حول مسائل بعيدة تماما عن الديانة وأسرارها · ولكنها كانت كلها تسير هذين المسارين الواضحين اللذين اختطهما رجال الفريق اليوسابى منذ البداية ، أعنى اثارة غضب الامبراطور وجلب حنق الأساقفة· وكان الفريق اليوسابى يعلم مزاج الامبراطور ، فعرف كيف يصور له أثناسيوس فى صورة المعترض على قراراته المتحدى لسلطانه ، وساعد أثناسيوس بسلوكه وعناده على تثبيت هذه الفكرة لدى الامبراطور ·

وان كان اليوسابيون قد حرصوا على أن يغلفوا ذلك بستار العقيدة أيضا ، ولهذا فانهم رغم سعيهم الدائب لاثارة الامبراطور ضد أثناسيوس ، لم يضعوا ذلك فى اطار النزاع الشخصى بين قسطنطين وأثناسيوس ، حتى لا يجعلوا من الأسقف السكندرى بطلا فى نظر رعيته يناضل ضد الامبراطور ·

---

(١٣٩) داونى ، أنطاكية فى عهد ثيودوسيوس ، ترجمة دكتور البرت بطرس ، ص٨٣ ·

ما كاد المجمع ينهى جلساته ويصدر قراره حتى تسلم رجاله رسائل من الامبراطور يدعوهم فيها للتوجه الى أورشليم لحضور حفل تدشين الكنيسة الفخمة التى أقامها الامبراطور هناك ، والذى يوافق الاحتفال أيضا بالعيد الثلاثينى لحكم الامبراطور(١٤٠) . ويصور يوساب ذلك بقوله ان المدينة قد غدت مسرحا ضم عديدا من مختلف الشخصيات الكنسية ، فقد جاء الى هناك اسكندر أسقف سالونيكا ، ومن بانونيا حضر أورساكيوس وفالنز ، وأحد أساقفة فارس ، ومن بيثينيا وتراقيا ثيوجنس هذا بالاضافة الى أساقفة كليكيا وكباودكيا وسوريا وميزوبوتاميا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وليبيا وطيبة ،الى جانب عدد هائل من موظفى القصر الذين أرسلوا للاشراف على هذا الحفل والارتفاع به الى ما يناسب مقام الامبراطور السامى(١٤١) ، ثم يخبرنا يوساب بعد ذلك أن أولئك الموظفين قد قاموا بناء على الأوامر الامبراطورية بتوزيع الهدايا والمنح والعطايا التى أنعم بها الامبراطور على رجال الله(١٤٢) . وقد قابل الأساقفة ذلك بالقاء عديد من الخطب التى تدور كلها حول تمجيد الامبراطور والاشادة بورعه وتقواه وهذا العمل النبيل الذى أقدم عليه ، والدعاء الى الرب بأن يحفظه ويرعاه ، ويذكر يوساب أنه شارك هو الاخر فى هذه المباراة وأوضح فى خطبته أن تلك الكنيسة وتمامها فى ذلك الوقت بالذات كانت مما جاء فى نبوءات الأنبياء قبل ذلك(١٤٣) !!

ولا شك أن الامبراطور عندما واتته أنباء هذا الاجتماع بهذه الصورة التى كان عليها داعبه من جديد أمل السلام والوحدة ، فها هو يشهد أساقفة الشرق جميعا ،وقد اتحدت كلمتهم مهما كان نوع هذا الاتحاد ، ثم نظر فاذا بآريوس لا يزال خارج الكنيسة ، فأيقن أن هذه هى الفرصة المناسبة ليعيد آريوس الى كنيسته فينتهى بذلك من مشكلة آلمته من حكمه سنين عددا ، وعلى هذا بعث بآريوس وصحبه يوزيوس الى

---

(١٤٠) EVSEB. vita Const. IV, 43.

(١٤١) Id.

(١٤٢) Ibid. 44.

(١٤٣) Ibid. 45.

مجمع الأساقفة فى أورشليم سنة ٣٣٥ ، وأخبرهم أنه قد اطلع على وثيقة ايمانهما التى قدماها اليه ، وأنه مقتنع بكل ما جاء فيها ، وحثهم على قبول هذه الوثيقة واعادة آريوس وصحبه الى الكنيسة(١٤٤) · ولم يكن الأساقفة فى حاجة الى توصية الامبراطور ، فقد كانوا جميعا من مؤيدى آريوس ، فأصدروا على الفور قرارهم بقبول صيغة الايمان التى قدمها الرجلان وهى التى أشرنا اليها آنفا · واعادة قبولهما فى الكنيسة · وعودتهما الى كنيسة الاسكندرية ، وكتبوا الى الامبراطور يخبرونه بكل ما حدث(١٤٥) · كما أرسلوا أيضا رسائل بهذا المعنى الى عموم الكنائس فى الاسكندرية وطيبة وليبيا ومختلف رجال الاكليروس فى مصر حاثين اياهم على قبول آريوس وشيعته ، وشفعوا ذلك بأقوال تضع حديثهم فى صيغة أمر واجب التنفيذ ، فذكروا أنهم أقدموا على هذا بعد أن تأكد لديهم صدق ايمان آريوس وصحبه ، وأن الامبراطور محبوب الرب التقى الورع ، قد تعهد فى خطابه لهم بصحة ايمان الرجلين بقبولهما فى الكنيسة(١٤٦) ·

ويبدو أن رسالة الامبراطور الى المجمع بخصوص قبول آريوس وصحبه فى الكنيسة ، قد بعثت قبل أن يلتقى الامبراطور بأثناسيوس الذى انسحب وبعض خاصته أثناء انعقاد مجمع صور ، وشخص الى القسطنطينية ليعرض على الامبراطور صورة لهذا الحيف الذى وقع به ، ذلك أن الامبراطور ما أن التقى بالأسقف السكندرى وسمع له حتى أرسل رسالة عنيفة الى الأساقفة الذين كانوا قد اجتمعوا فى صور وهاهم الآن فى أورشليم ، ويبدو أن الامبراطور قد تأثر الى حد كبير بما سمعه من أثناسيوس ، وذلك واضح مما جاء فى مقدمة رسالته حيث يقول :

« انى فى واقع الأمر لا اعلم شيئا عما اتخذه مجمعكم من قرارات فى جو عاصف صاخب ، غير أنه يبدو لى أن الحق قد تعرض للتحريف نتيجة اجراءات فوضوية مضطربة · ذلك لأنكم ، كما يقال ، حبا فى الجدال ،

---

(١٤٤) SOZOM. hist. eccl. II, 27.

(١٤٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(١٤٦) ATHANAS. Apol. C. Arian. 84.

اغفلتم أمورا يرتضيها الاله ، وانى لأرجو لله ، وكلى ثقة ، أن تعمل العناية السماوية على اذابة مآس خلفها لتنافس الحاد ، وذلك عندما يتم فحص تلك الأمور بدقة ، وانى لامل أن توضحوا اذا ما كنتم قد راعيتم فى مجلسكم مضمون الحق ، واذا ما كنتم أيضا قد أصدرتم قراراتكم دون ما تحيز أو تعصب »(١٤٧) ٠

وبعد أن يخبرهم قسطنطين أن سلوكه قد ادخل البرابرة فى حظيرة المسيحية ، يوجه اليهم اللوم قائلا :

« اما نحن معاشر الذين يتشدقون باحترام العقيدة ، وأسرارها المقدسة ، (ولا أقول حراسها) ، لا نفعل الا ما يبذر بذور الشقاق والعداوة ، ولاكون معكم صريحا ، نعمل على دمار البشرية »(١٤٨) ٠

ولندع قسطنطين الان يحدثنا بنفسه عن المقابلة التى حدثت بينه وبين اثناسيوس ، حيث يتضح من حديثه انه لم يكن لديه الرغبة للقاء الأسقف السكندرى ، يقول الامبراطور :

« بينما انا داخل المدينة التى تحمل اسمنا ، فى هذه الديار الزاهرة ، القسطنطينية ٠ وكنت ساعتها ممتطيا صهوة جوادى ٠ اعترضنا فجاة الأسقف اثناسيوس ، يحيط به بعض من رجال الدين ، يتغون السماح لهم بمقابلتنا ، ويعلم الله ، الذى أحاط بكل شىء علما ، انى لم اتبين للوهلة الأولى شخصه حتى انبائى عنه بعض خاصتى ، بعد أن سالتهم ذلك ٠ وانباونى ايضا كم من الآلام قاسى ، وحتى ذلك الحين لم أحادثه ، أو أجرى اتصالا معه ، ولكنه راح يلح طالبا الاذن له بلقائنا ، ورغم انى رفضت ذلك مرارا ، وأمرت بابعاده عن حضرتنا الا انه أعلن فى جراة فائقة أنه لا يطلب

---

(١٤٧) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.

(١٤٨) Id.

سوى شيء واحد ، هو أن تمثلوا جميعا الى هنا ، حتى يجد في حضرتنا فرصة عادلة لبحث مظلمته »(١٤٩) ·

وقد وجه قسطنطين أوامره الى هؤلاء الأساقفة بالحضور على وجه السرعة الى بلاطه ، ويتضح مدى اهتمامه بهذا الأمر ولهفته على وصول الأساقفة ، من أن دعوته اياهم للحضور قد جاءت في رسالته هذه في ثلاثة مواضع متقاربة ، كلها تتعجل رحيلهم الى القسطنطينية لحسم هذا الأمر في حضرة الامبراطور ·

ويبدو أن هذه الرسالة قد وصلت بعد أن غادر كثير من الأساقفة أورشليم عائدين الى بيعهم بعد أن حصلوا على الهدايا الامبراطورية ، وان كان اثناسيوس(١٥٠) وسقراط(١٥١) وسوزومين(١٥٢) يخلعون على الأساقفة حالة من الرعب والهلع دفعت بالبعض الى الاسراع بالرحيل عن أورشليم والعودة الى ديارهم · غير أن يوسب النيقوميدى جمع مشاهير رجالاته وسافر للاقاة الامبراطور في القسطنطينية · وكان من بين هؤلاء الأساقفة ثيوجنس ، وماريس، وباتروفيلوس ،وأورساكيوس ،وفالنز(١٥٣) · ويقول سوزمين ان هذا الجمع قد بين للامبراطور أن مجمع صور لم يقدم على شيء ضد اثناسيوس ، وانما توخى العدالة تماما ، وأعادوا على مسامعه سابق الاتهام بتحطيم الأوانى المقدسة(١٥٤) · وان كان اثناسيوس ينفى ذلك ويقول ان هذا الأمر شيء ثبت بطلانه فلم يجرؤ الأساقفة على ذكره ، ولكنهم جاءوا الى الامبراطور باتهام جديد فحواه أن اسقف الاسكندرية هدد بمنع ارسال القمح من الاسكندرية الى القسطنطينية(١٥٥)· واكدوا أن هذا التهديد جاء على شفتى اثناسيوس وسمعته آذان عدد من الأساقفة من بينهم أدامانتيوس Adamantius وانوبيون Anubion ،

---

(١٤٩) SOCRAT. hist. eccl. I, 34.
(١٥٠) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(١٥١) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(١٥٢) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(١٥٣) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(١٥٤) SOZOM. hist. eccl. II, 28.
(١٥٥) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.

وارباثيون Arbathion ، وبطرس Peter (١٥٦) · ويصف اثناسيوس حالة الامبراطور لدى سماعه هذا الاتهام بقوله : « اشتعل على الفور غيظ الامبراطور واشتد حنقه ، وبدلا من أن يرسل الى لسماع قولى ، أمر بنفيى الى غالة »(١٥٧) · ويقول سقراط معلقا على ذلك بأن الامبراطور أصدر هذا القرار بدافع الرغبة فى توحيد الكنيسة حيث أن اثناسيوس رفض المصالحة مع آريوس(١٥٨) ·

ولقد أصاب سقراط بقوله هذا كبد الحقيقة ، فبالاضافة الى أن الامبراطور كان يتميز غيظا لدى سماعه بهذا الاتهام الجديد ، سواء كان هذا الادعاء باطلا أم حدث فعلا ، فقسطنطين كان يدرك يقينا الأهمية الاقتصادية لمصر وما تمثله غلالها من اهمية للعاصمة الجديدة ، ولم يكن قسطنطين يتصور مطلقا أن يتسبب شخص مهما بلغت مكانته فى احداث مجاعة فى روما الجديدة ! هذا من ناحية · والأخرى انه ضاق ذرعا بعناد اثناسيوس ، فقد حاول كثيرا أن يلتقى واياه على طريق وسط ، ولكن الأسقف السكندرى لم يكن ممن يقبلون هذه السياسة · فقد كان متشددا فى موقفه لا يقبل المساومة ، ووصل به الأمر ذات مرة الى حد رفض الاذعان لأوامر الامبراطور عندما قرر الامتناع عن الظهور أمام مجمع الأساقفة فى قيسارية سنة ٣٣٣ ، ولم يتراجع عن موقفه تجاه الآريوسيين أو الميليتيين ، ولم يحاول بذلك اعادة السلام الى الكنيسة والوحدة ، وذلك شىء كانت تتوق اليه نفس الامبراطور ، وأدرك قسطنطين خلال هذه الرحلة الطويلة الشاقة أن اثناسيوس هو العقبة الوحيدة الباقية فى سبيل اعادة الوحدة الى الكنيسة ، ومن ثم قرر التخلص منه بنفيه ، فكسبت الدولة بذلك جولتها الأولى ضد الكنيسة ·

على هذا النحو حقق الفريق اليوسابى نصره على زعيم الايمان النيقى، وفى نفس الوقت حقق نصرا آخر ، ذلك أن ماركللوس Marcellus أسقف

---

(١٥٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.
(١٥٧) ATHANAS. Apol. C. Arian. 87.
(١٥٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 35.

انقرة كان قد كتب عدة كتابات ضد الآريوسية(١٥٩) ردا على رسالة كان آستريس Asterius أحد مواطني كبادوكيا قد كتبها يدافع عن العقيدة الأريوسية ، وراح يذيعها في عدة مدن وينشرها بين كثير من الأساقفة ، ومن ثم أخذ ماركللوس على عاتقه مهمة دحض هذه الأقوال ، فأدى ذلك به سواء بوعي أو بلا وعي الى ترديد آراء بولس السميسطائي(١٦٠) ٠

وقد عده اليوسابيون خصما لهم ، فاتهموه بأنه لم يوافق على القرارات التي أقرها مجمع أورشليم عام ٣٣٥ بخصوص قبول آريوس وصمه ثانية في الكنيسة ، وأنه رفض حضور تدشين كنيسة أورشليم حتى لا يشترك والأساقفة في اتخاذ قرارات هو عنها غير راض ،ويذكر سوزومين أن الفريق اليوسابي ركز على هذه النقطة بالذات واثارها لدى الامبراطور مبينا له أن ذلك يعد اهانة كبيرة لشخصه بعد أن رفض هذا الأسقف حضور حفل تدشين كنيسة أورشليم(١٦١) ٠ ولعل هذا يؤكد ما نذهب اليه من أن المسألة كانت في حقيقة أمرها تستتر برداء العقيدة ،ولم تكن سوى نزاع شخصي ، ولذلك كان الفريق اليوسابي يصور المسألة للامبراطور باعتبارها تمس شخصه مباشرة ، وتمثل اعتقاضا لسيادته ، مما يثير بالتالي غضبه ٠ وعلى هذا النحو اجتمع الأساقفة هؤلاء في القسطنطينية واصدروا قرارهم بعزل ماركللوس من أسقفيته(١٦٢) ٠

أما ما كان من أمر آريوس فانه عاد ثانية الى الاسكندرية بعد أن اصدر مجمع أورشليم قراره بقبوله ورفاقه في الكنيسة ، الا أن الأساقفة المصريين أنصار اثناسيوس رفضوا الامتثال لقرارات المجمع ، فأدى هذا بالتالي الى حدوث الاضطرابات من جديد في الاسكندرية(١٦٣) ، ولما كان الامبراطور غير راغب في السماح بوقوع فوضى جديدة تعكر صفو سلامه ،

---

(١٥٩) HIER. vir. ill. 86.
(١٦٠) SOZOM. hist. eccl. II, 33.
SOCRAT. hist. eccl. I, 36.
وراجع أيضا :
(١٦١) SOZOM. hist. eccl. II, 33.
(١٦٢) SOCRAT. hist. eccl. I, 36.
(١٦٣) Ibid. 37.

فقد أرسل الى آريوس يستدعيه فورا الى القسطنطينية · وكان أسقف المدينة فى هذا الوقت اسكندر الذى دخل فى صـــراع مع آريوس منذ وصوله الى العاصمة كما ينبئنا بذلك سقراط(١٦٤) · ولعل ذلك يرجع الى ما يكون قد نمى الى علم اسكندر من رغبـــة الفريق اليوســابى فى أن يقـــوم أسقف القسطنطينية بقبول آريوس فى الكنيسة حتى يكون ذلك أنموذجا تحتذى به بقية كنائس الامبراطورية · وقد تأكد هذا فعلا عندما طلب الامبراطور اليه الاقدام على هذه الخطوة ،وهدده يوساب بالسعى لـدى الامبراطور لعزله اذا ما رفض قبول آريوس(١٦٥) ·

على هذه الشاكلة انتقلت الفرضى من الاسكندرية الى القسطنطينية ، فانقسمت المدينة الى فريقين ، أحـــدهما يتمسك بقانون الايمان النيقى ، والآخر يناضل من أجل آريوس · وأدرك الامبراطور خطورة الحال ، فـدعا اليه اسكندر وآريوس وطلب الى الأخير الاعتراف بقرارات مجمع نيقيـــة والقسم على صحة ايمانه(١٦٦) ففعل ، وقبل الامبراطور منه صيغة ايمانه ودعا اسكندر الى قبوله فى الكنيسة · ولكن هـذا كان غير راغب فى ذلك تماما ، وتحرج موقفه أمام الامبراطور الذى حدد يوما يتم فيـــه ذلك على مرأى من الجميع ، وتعقدت المشكلة ولكنها لم تلبث أن حلت فجـــأة بوفاة آريوس فى نفس اليوم من عام ٣٣٦ · وعـد خصومه وفاته دليـــلا على الغضب الالهى ، كما جرت بذلك أقلام مؤرخى الكنيسة جميعهم !! وان كانت مسألة موته فجأة تنتظر رأى محكمة التاريخ ·

ولعلنا نتساءل الآن عن موقف الغرب الامبراطورى طيلة هذه السنين ، الحقيقة أنه أخلد الى الهدوء بعد مجمع نيقية اذا استثنينا احـــداث ولاية أفريقيا · وقنع بقانون الايمان الذى قر عليه رأى الأساقفة هناك خاصـة بعد أن تضمن هذا القانون نصوصا كانت فيه سائدة أو على الأقل معروفة · وبدا أن المشكلة برمتهـا لم تكن تعنى الغرب فى قليل أو كثير · فوقف من الأحداث موقف المتفـرج · وكان الامبراطور قرير العين بهـــذا السلوك ·

---

(١٦٤) SOCRAT. hist. eccl. I, 37.

(١٦٥) Id.

(١٦٦) Id.

فكفى من الغرب جزء تعصف به رياح الانقسام · ولكن الغرب والامبراطور لم يقدرا أنه لن تمضى على وفاة قسطنطين سنوات قلائل حتى يشمله ذلك الصراع ، وكان لوجود أثناسيوس هناك منفيا أو من بعد هاربا أكبر الأثر فى ذلك · ولم يكن كلاهما يدرى ما خطته يد القـــدر من ويلات تنتظر ذلك الغرب الذى أقحمت عليه فى عهد خلفـــاء قسطنطين المشكلة الآريوسية ، حتى يأتى زمان تنعكس فيه الآية ، فترحل الاريوسية من الشـــرق مكرهة لتمكث فى الغرب قرونا للجرمان دينا !!

وكان قد بقى لقسطنطين من عمره عـام واحد ، قدر له فيه أن يشهد هدوءا مشوبا بالقلق فى أمر العقيدة ، وراح يجتر أحلاما داعبته طيلة هذه السنوات عن الوحدة والسلام · لقد حقق الامبراطور بقوته العسكرية وحدة الدولة ، ولـكن « مبعوث الرب » عجز عن أن يضمن للكنيسة وحدتهـــا ، فتركها أكثر انقساما من البدء وأشد فرقة ، وراح ليمـــوت والألم يعتصر فؤاده على عمر أفناه فى رجاء تلاشى وأمل تبدد !!

كان قسطنطين على قـــدر كبير من الذكاء ، أدرك من خلاله الى أين يتجه تيار المسيحية وقدرها ، فركب أمواج الحماسة لهذه العقيدة ، وعرف كيف يفيد منها الى أقصى درجة ·

لقد شهد بعينى رأسه وهو بعد فى بلاط نيقوميديا رهينة ، اصـرار المسيحيين وعنـادهم رغم الاضطهاد العنيف الذى تعرضوا له على عهـــد دقلـيانوس وجاليريوس قيصره ، وتأكد لديه ذلك بصورة أكثـــر وضوحا خلال الحملة العسكرية التى قادها دقلديانوس الى مصر ،وعلى طول الطريق عبر آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين ، ولهذا أيقن بفطنته أن يدا رحيمـة تمسح عن هذه القلة المستضعفة جراحاتها ، وتخفف عنهـا ويلات آلامها ، يمكن أن تجعل منها أنصارا مخلصين وجندا أوفياء ·

ولم يتردد فى الاقدام على هذه الخطوة بل سارع اليهـا على مهل ، واستبل فرصتها فى روية ، واستغل أخطاء ، بل ربمـــا حماقات خصـومه ومنافسيه على العرش الامبراطورى ماكسنتيوس وماكسيمين دازا وليكين ، ليسحب الأرض من تحت أقدامهم ، لقد عادى هؤلاء جميعا المسيحيين ونكلوا

بهم ان عنفا أو فى هوادة ، وفى الوقت ذاته لم يقدموا للوثنية جديدا يمكن أن تنهض به ، أو يبعثها من الرقاد ٠

كان قسطنطين حصيف الرأى ، يفوق معاصريه من العلمانيين ورجال الدين فطنـــة وذكاء ، فاختـــار مستشاره للشئون الدينية من الغـــرب الامبراطورى ، هوسيوس أسقف قرطبة ، وهو رجـل ترضى عنـه الأوساط الكنسية على قلتها فى الغرب آنذاك ، وانتقى أيضا مادحه ورئيس جهـــاز دعايته من النصف الشرقى ، يوسب أسقف قيســـارية فلسطين ، صاحب الآراء اللاهوتية المعتدلة ، والذى حاز ثقـة كل الأطراف والفرق الدينيـــة المتصارعة ٠ ولم تكن الصلة بين الامبراطور والأسقف القيسارى حديثة عهد عندما انفرد قسطنطين بحكم الامبراطورية ، ولكن يوساب القيسارى ـ كما تشير المصادر المعاصرة ـ تعرف الى قسطنطين وهو فى طريقه الى مصـر فى حملة دقلديانوس ٠ ولا شك أن اللقاء الذى تم بين الرجلين فى هـــذا الوقت المبكر ، قد ترك أثره الكبير فى نفس كل منهما ازاء الآخر ، وان كان قد أفاد امبراطور الغد كثيرا ، فرسم للرجل فى مخيلته صـورة تتفق وما يعتمل فى داخله من واسع الطموح ٠

لقد حرص قسطنطين طوال فترة حكمه التى امتدت ما يزيد على ربع قرن ، أن لا يثير شكوك رعيته الوثنية ، والتى تمثل جل امبراطوريته ، بل ظل فى نظر هؤلاء الرجل الذى وحـــد الامبراطورية وأنقـــذها من ويلات الحروب الأهلية الطاحنة ٠ حقيقـة سمح للمسيحيين بممارســـة طقوس عبادتهم ، وأعاد اليهم أموالهم وأملاكهم المصادرة ، وأباح لهم حرية اقامة كنائس جديدة واصلاح ما تهدم من دور العبـــادة تحت وطأة الاضطهاد ، وأعاد المنفيين وأطلق سراح المسجونين ، وحقيقة أيضا أصدر أوامره بهدم عدد من المعابد فى كيليكيا وفينيقيا ، ولكن قسطنطين مع ذلك كله لم يذهب كما فعل سلفه دقلديانوس فى سياسته تجاه المسيحية ، فلم يصـــدر ضد الوثنية مرسوما عاما بالاضطهاد أو بهـدم المعابد الوثنية فى كل أنحـــاء الامبراطورية ، أو باحراق كتبهم المقدسة ، أو بسوق كهنتهم الى العـذاب زمرا ، أو بتعقب الجموع الوثنية وحرمانها من ممارســـة الطقوس نحـو أربابها ٠ بل ان هذه المعابد التى تم هدمها ، لم يكن ذلك بصفتها الوثنية ،

ولكن لغتها كانت قد أمست مباءة فجـــور بعد أن هجرتها الأرباب اذ تخلى عنها عبادها !!

وفى الوقت الذى اختار فيه قسطنطين الأحـد المقدس عند المسيحيين وجعل منه عيدا أسبوعيا ، دعاه يوم الشمس ولم يدعه أبدا بيوم السبت ، وبينما جعل من لابرومة المسيح شعارا له ، استمرت العملة تصـــدر حتى سنة ٣٣٣ تحمل شعار الشمس التى لا تقهر ، وقبل كل هذا وذاك فان وثيقة التسامح التى قدمناها باسم رسالة نيقوميديا ، لم تقـــدم امتيازا خاصا للمسيحيين ، ولكنهـا حملت لرعايا الامبراطورية كلهـا حـــرية العقيدة الدينية ٠

لقد ادرك الامبراطور بثاقب نظره أن نجم الوثنية الى أفول ، وأنهـــا تسير بخطوات ، وان كانت وئيدة ، الى النهـاية المحتومة ٠ فلم يحاول أن يبعث فيها الحيـاة ، ولم يتعجل يوم خرتها ٠ ولكن سياسته ازاءها ونجاة المسيحية كانت نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الانسانيـة ، ليس من الغريب أن يطـق عليها Moss فى كتابه The birth of the Middle Agesالحد الفاصل بين عالمى العصور القديمة والوسطى ٠

وكان قسطنطين بارع الدهائية ، أغرق الكنيسة فى هباته وخيراته ، وأغدق عليها من فيض انعمه ، بيدى اهتمامه البالغ ، بل وقلقه ، من أجل الانشـقاقات التى تحدث فى الكنيسة ٠ ويدعو لعقـــد المجامع كى تفصل فى النزاع اللاهوتى ،ويحمل الأساقفة عـى المركبات العـامة ، ويحمل الخزانة نفقات حلهم وترحالهم ، ويشترك فى مناقشاتهم ، ويرســـل الى ملك فارس يحثه على حسن معاملة رعاياه من المسيحيين ٠ فغدا بذلك فى نظر الكنيسة راعيها وحاميها ، والملجأ لها والملاذ ٠ ولكن قسطنطين طوال رحلة الحـكم التى سارها وفى علاقته بالكنيسة ،لم ينس مطلقـا أنه امبراطور رومانى ، وأنه صـاحب السلطان المطلق فى الامبراطورية ، وأن النظـرية السياسية الرومـانية لا يمكن أن تقبل مطلقا بقيام هيئة مستقلة داخـــل الدولة ، أو بمعنى أكثر دقة ، دولة داخـــل الدولة ، ومن ثم ترأس قسطنطين المجامع الكنسية ، وصدق على قراراتها ، وتدخل فى تعيين الأساقفة وعزلهم ٠ لقد أصبح الامبراطور الان ــ رغم عـدم اعتناقه المسيحية ــ الأسقف الأعلى ، بعد أن كان فى الوثنية الكاهن الاعظم ٠ وان ظل يحمل هـذا اللقب الوثنى

طيلة حياته ، بل ولم يتخل عنه خلفاؤه المسيحيون حتى عهد الامبراطور جراتيان Gratianus (٣٧٥ ـ ٣٨٣) ٠

وكان كل ما يشغل بال قسطنطين أن يظل سيدا مطلقا لامبراطورية موحدة ، قضى ثمانية عشر عاما (٣٠٦ ـ ٣٢٤) فى سبيل جمع شتاتها ٠ ولهذا فان حدوث أى انقسام ، فى هذه الجماعة الجديدة التى ولى أمرها رغم قلة عددها يمكن أن يؤدى بصورة ما الى التأثير فى وحدة الامبراطورية٠ ولا تكاد رسالة أو خطبة صدرت عن قسطنطين تخلو من ترديد هذه النغمة ٠ وانطلاقا من ذلك فقد أراد أن يعالج بالحزم منذ البداية أول مشكلة للكنيسة طغت على السطح فى عهده ، أعنى الدوناتية ٠ ولهذا اتخذ جانب الكنيسة الكاثوليكية ولم يلق بالا لجماعة الدوناتيين ولا حتى لسماع دعواهم ٠ فلما فشلت هذه السياسة رأى أن يطبق النظرية السياسية بشكل آخر عن طريق ايجاد التوازن بين مختلف الأطراف ، بحيث يصبح الامبراطور الرومانى فى النهاية هو الحكم الفيصل بينهما ٠ ومن ثم نراه يؤيد العقيدة النيقية سنة ٣٢٥ فى المجمع المسكونى الأول ، وبعد ثلاث سنوات فقط يعفو عن آريوس وصاحبيه ، ويقبل منهم وثيقة ايمانهم دون الرجوع الى الكنيسة ٠ ولعل القرار الذى اتخذه المجمع النيقى ازاء المشكلة الميليتية فى مصر ، والذى جاء بوحى من الامبراطور ، يعد خير دليل على سياسة الحلول الوسطى التى لجأ اليها قسطنطين ٠

ولقد كان بلاط قسطنطين أنموذجا حيا لهذه السياسة ، يجمع أضداد الخلائق وشتى الفكر ٠ فهناك المستشارون العسكريون والمدنيون كلهم من الوثنيين ٠والى جوارهم مستشاره الخاص لشئون الكنيسة ، هوسيوس أسقف قرطبة ، النيقى المتحمس ٠ وفى الناحية الأخرى يقف يوساب النيقوميدى الآريوسى العنيد ، صاحب لحظوة لدى الامبراطور بعد عودته من المنفى ٠ وبين هؤلاء وأولئك صديقه الحميم يوساب القيسارى ، رجل الفكر المعتدل ٠ وقد استطاع قسطنطين أن يوحى الى هؤلاء جميعا أنه « مبعوث الرب » الذى عهد اليه بادارة الامبراطورية ، وأن عليه أن يقود سفينها وسط الأنواء الى شطآن النجاة ٠ ولقد حاول قسطنطين الكثير ، ونجح فى أن يضع لخلفه أسس العلاقة بين الدولة والكنيسة ٠ ولكن مشاكل الكنيسة وخلافاتها اللاهوتية كانت أشد تعقيدا مما توقع قسطنطين ٠